
من إعجاز القرآن
وليس الذكر كالأنثى
محمد عثمان الخشت
مكتبة القرآن

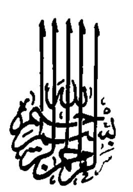


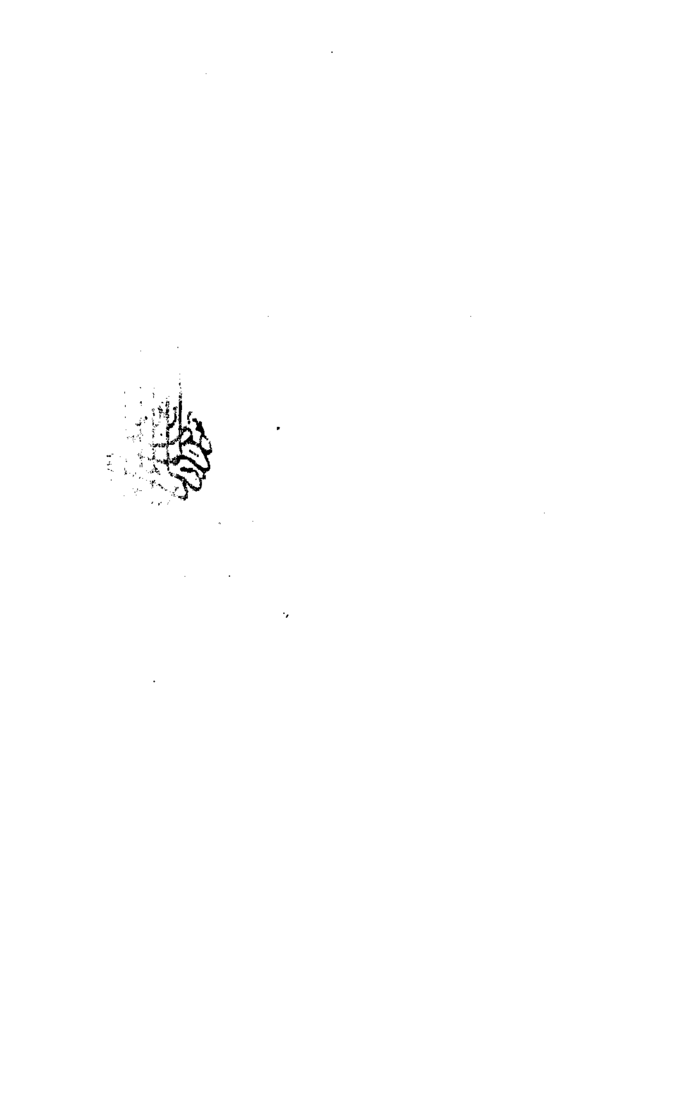
وليس الذكر كالأنثى

دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة

محمد عثمان الخشت

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربِّ العالمين ، لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . أما بعد :

لابد أن أصرح ، منذ البداية ، بأن هذا البحث لا يهدف مطلقاً إلى أى لون من ألوان المفاضلة أو المفاخرة بين الجنسين ، بل كل ما يهدف إليه هو إثبات أن « ليس الذكر كالأنثى » .

فالذكر والأنثى مختلفان ، ولكن ليس أحدهما أفضل من الآخر ، إنما كلاهما متكافئان فى القيمة ، ولو أن قيمة كل منهما من نوع مختلف .

وإذا كان كل من الجنسين قد يأخذ من الآخر بعض السمات بنسب متفاوتة ، فإن هذا لا ينفى مطلقاً أن « ليس الذكر كالأنثى » .

والذكورة والأنوثة ليست شيئاً مقصوراً على الإنسان وحده ، بل هى شىء شائع فى الحيوان والنبات والجماد . وإذا أردنا الدقة فهى شىء شائع فى جميع الكائنات ، حتى ما يخفى منها عن العيان المباشر ، مثل : الكهارب الموجبة والسالبة ، التى تتجاذب لتستوى بها الذرة الدقيقة .

قال تعالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ** ﴾ .. (٤٩ – الذاريات) ﴿ **وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ** ﴾ .. (٤٥ – النجم) ﴿ **خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِم وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ .. (٣٦ – يـس)

وجرياً على سنة الله تعالى فى الطبيعة ، كان لابد أن يختلف كل من الرجل والمرأة فى طبيعة التكوين والفطرة ، حتى إذا ما التقى الاثنان وجد كل منهما عند الآخر ما ليس موجوداً عنده ولا عند أمثاله . ولذا نرى كلاً من الاثنين يسعى سعياً حثيثاً إلى الاتحاد بصنوه المتمم له ، ويلتمس السعادة والكمال فى الامتزاج به .

هذا ، وقد نهجت فى كتابة هذا البحث منهج الإيجاز والتلخيص . ولم أشأ قط استعراض أكداس المعلومات التى توصلت إليها العلوم المختلفة قديماً وحديثاً عن التباينات بين الذكر والأنثى . وما فعلته يتمثل فى تلخيص النتائج التى توصلت إليها تلك العلوم ، خاصة : علم التشريح ، علم وظائف الأعضاء ، علم النفس ، علم الاجتماع .

وكان استعراضى لنتائج هذه العلوم ، فى مجال تبيان الفروق بين الجنسين ، بمثابة تمهيد منطقى لتوضيح نظرة الإسلام إلى كل من الذكر والأنثى ، وكيف أنه سوّى بينهما فى الأمور التى تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان ، وفرّق بينهما فى بعض النواحى تفرقةً تنشأ من تباين طبائعهما ، واختلاف وظائفهما ؛ تحقيقاً لصالحهما ، ولصالح كل من الأسرة والمجتمع والحضارة .

وتجدر الإشارة إلى أن كل الموازنات والمقارنات التى جاءت فى هذا الكتاب ، إنما تجرى على الأعم الأغلب فى جميع الأحوال ، ولا شأن لها بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين ، والذى لابد منه فى كل تعميم .

وأخيراً ، فإنى أود أن أشير إلى أننى ، بعد بحث طويل ، فى المكتبات ومظان الكتب المختلفة ، لم أعثر على أى كتاب ناقش موضوع التباين بين الجنسين من كل الجوانب التى تناولناها مجتمعة فى كتاب « وليس الذكر كالأنثى » . وأغلب ظنى أن هذا الكتاب المتواضع ، يعد أول دراسة ناقشت هذا الموضوع من منظور الإسلام والعلوم الحديثة معاً .

وفيما يلى بيان لهذا الإجمال ، شيمته إظهار وجوه الانسجام والتوافق بين تصور الإسلام وتصور العلوم الحديثة .

والله أسأل أن يتقبل عملى هذا بقبول حسن ابتغاءَ وجهه الأعلى ، إنه سميع عليم .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ..

محمد عثمان الخُشْت
الأهرام فى : ١٠ من ذى الحجة ١٤٠٤ هـ
١٦ من سبتمبر ١٩٨٤ م

القسم الأول

ليس الذكر كالأنثى فى بنيان الجسم ووجوه النشاط الفسيولوجى

---

* نوع الجنين : ذكر أم أنثى ؟
* البلوغ وتغيراته
* الحساسية البدنية
* تكوين الحوض
* أعضاء التناسل
* طبيعة الشهوة الجنسية
* الحمل
* الحيض
* الخلايا
* الهرمونات

نوع الجنين : ذكر أم أنثىٰ ؟

﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾[1] .. ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾[2] ..

يتحدد نوع الجنين : ذكراً أو أنثى ، منذ تلقيح البويضة بالحيوان المنوى ، أى منذ اللحظة الأولى لتكوين الخلية ، التى تنقسم بعد ذلك لتكون الجنين .

وحتى يتيسر تصور هذا الأمر لابد أن نعرف أن كل خلية من خلايا جسم الإنسان تحتوى على ٤٦ كروموسوما « أو صبغيات » ، وهى التى تحمل الصفات الوراثية . ومن هذا العدد ٤٤ خاصة بجميع الصفات الوراثية ماعدا تحديد الجنس ، فى حين يتحكم اثنان فقط من مجموع الكروموسومات فى تحديد نوع الجنين . ففى الإناث يكون الاثنان متشابهين ، أما فى الذكور فإنهما مختلفان . وكل بويضة تحتوى على كروموسوم واحد لتحديد الجنس وهو « س» . فى حين أن الحيوانات المنوية تنقسم قسمين : قسم يحمل كروموسوم « س » ، والآخر يحمل كروموسوم « ص » . وعلى هذا تجد أن نوع الحيوان المنوى الذى يلتقى بالبويضة هو المسئول عن تحديد جنس الجنين ؛ فإذا كان الحيوان المنوى يحمل كروموسوم « س » والتقى بالبويضة ، فتصبح الخلية حاملة « س س » ، ويكون الجنين أنثى . فى حين لو التقى حيوان منوى يحمل كروموسوم « ص » بالبويضة ، يكون الجنين الناتج ذكراً . ومن هذا يتضح أن خلايا الأب هى التى تتحكم فى نوع الجنين وليس خلايا الأم .

* * *

---

(١) ٤٩ – الشورى .

(٢) ٤٥ – ٤٦ : النجم .

ليس الذكر كالأنثى
فى البلوغ وتغيراته

البلوغ :

مرحلة البلوغ هى تلك المرحلة التى يتم خلالها التدرج نحو النضج الجسمى والنفسى والاجتماعى ؛ فهى مرحلة انتقالية يتحول خلالها الطفل إلى رجل بالغ ، وتتحول فيها الطفلة إلى امرأة بالغة ، والاثنان يتعرضان فيها لجملة تغيرات تطورية تقدمية تهدف فى المقام الأول إلى اكتمال النضج .

ومرحلة البلوغ بكل مظاهرها ليست متشابهة عند مختلف الأفراد أو الأمم ، بل هى تتباين بتباين الأفراد والأمم . ذلك لأن مرحلة البلوغ لا تتحدد وفقاً للعوامل الوراثية البيولوجية وحدها ، بل تتحدد وفقاً للتفاعل بين هذه العوامل وبين الأنماط الثقافية الفكرية السائدة فى المجتمع .

وما نريد أن نؤكد عليه أكثر من غيره فى هذا الموضوع – هو وجود فروق عديدة ومتنوعة بين الجنسين فى كل تغيرات وتطورات هذه المرحلة .

فمعظم الدراسات تشير إلى أن البنات أسرع نمواً من البنين ، وإن كان نمو البنين يظل مستمراً بعد توقف نمو البنات ، حتى ترجح كفتهم النموية على البنات نتيجة لهذا الاستمرار .

ولنأخذ الطول مثالاً على ذلك ؛ فحيث يتساوى الجنسان فى الطول فى العاشرة أو الحادية عشرة ، نجد أن البنات فى الثالثة عشرة يتفوقن على البنين ، ثم فى حوالى الخامسة عشرة يعود الجنسان فيتساويان مرة أخرى، ثم يأخذ البنون بعد فى التفوق على البنات بشكل ملحوظ .

وإذا أضفنا جانب الوزن إلى جانب الطول ، فستغدو الصورة أكثر وضوحاً ؛ فحيث تكون البنات قبل البلوغ أقل وزناً من البنين ، يصبحن فى المرحلة المبكرة من البلوغ أكثر وزناً من البنين ، ثم بعد هذه المرحلة يأخذ البنون فى التفوق .

وكما سبق ، فإن البلوغ يصحبه جملة تغيرات أساسية هامة تكاد تتناول أجهزة الجسم كلها ، خاصة الجهاز العصبى ، والجهاز التناسلى . ويتلخص معظمها فى خطوات التحول من دور الطفولة بكل مالها من حقائق ومظاهر إلى دور الأنوثة الكاملة أو الرجولة التامة : فى القوام ، والبنيان ، والمظهر ، والنمو ؛ وسائر التصرفات العقلية ، والنفسية ، والجسمانية ؛ وفى مختلف الميول ، والرغبات ، واتجاهات التفكير ، والتطبع ، والخلق . وذلك فضلاً على الصفات التناسلية الثانوية الخاصة بكل من الجنسين .

البلوغ فى الذكر :

فى الفتى تحدث جملة تغيرات أساسية ؛ حيث تطول قامته ، وتتصلب عظامه ، وتصبح عضلاته قوية مفتولة ، ويعرض كتفاه ؛ أما حوضه فيظل ضيقاً ، وتطول عظام فخذيه على حساب جذعه ؛ واستيفاء لتكوينه الرجولى يظل كتفاه أعرض من حوضه، وجذعه مربوعاً يحمله فخذان طويلان مفترقان . وبشكل ملحوظ تنمو له عضلات من غير أن تتخللها أنسجة شحمية . وتنمو أعضاؤه التناسلية : الباطنة والظاهرة ؛ فتفرز الخصية الحيوان المنوى القادر على الإخصاب ، ويصبح كل عضو قادراً على أداء وظيفته . وتتسع حنجرته ، ويمتاز صوته بخشونة واضحة ، ويكتسى جلده بالشعر ، خاصة فى منطقة العانة والإبطين ، وتنمو لحيته وتتحول فيه روح الطفولة وطباعها إلى النضوج والذكاء مما يدفعه إلى التفكير ، وتنقلب ذاكرته عن الاستيعاب إلى الخلق والإبداع ، ويصبح نشيطاً مع الآخرين ، ويغدو مطبوعاً فى خلقه على السيطرة أكثر من الخضوع .

البلوغ فى الأنثى :

فى الفتاة ذات البنية الصحيحة : يعتدل القوام ، ويمتلىء الجسم نتيجة زيادة الطبقة الدهنية التى تحت الجلد ؛ فيكتسب الجسم بوجه عام استدارة مليحة ، وامتلاء مرغوباً فيه ، وخلواً من الحفر والنتوءات المتعاقبة التى لا ترتاح العين لرؤيتها

(كما فى المرضى بأدواء[٣] مضنية طويلة المدى) . وفضلاً عن ذلك يكتسب الجلد نعومته وصفاءه ونضارته المعهودة . ولا يقتصر دور الطبقة الدهنية على إحداث استدارة لأجزاء الجسم ، وستر ما يعتوره من حفر أو نتوءات فقط ؛ بل يتعداه إلى بعض المناطق الخاصة ، التى تحظى بنصيب وافر من الطبقة الدهنية لبنيانها ، مثل : الثديين ، اللذين يكبران ، ويستديران ، ويتخذ كل منهما شكل نصف الكرة . وكذلك : منطقة جبل الزهرة ، والأليتان ، والفخذان ، وغير ذلك من مواضع خاصة . وهيكلها العظمى يظل محافظاً على نحافته ، ويتسع الحوض متخذاً شكلاً مناسباً يتفق مع العمل الذى سيقوم به ؛ وبعكس الرجل تكون كتفاها أضيق من حوضها ، وساقاها منحنيتين ، وفخذاها قصيرتين وملتصقتين . أما عظامها فتعرض قليلاً ، وجبينها يظل ساقطاً .

ويتم نمو أعضاء التناسل الباطنة ، مثل : الرحم ، والمبيض الذى يقوم عندئذ بعملية الإبياض السابقة عادة للطمث . وكذلك يتم نمو أعضاء التناسل الظاهرة ، مثل : الشفرين الكبيرين ؛ إذ يتخذ كل منهما شكله ، وحجمه ، وقوامه ، وبنيانه ، وموضعه فى البالغ .

وتتسع الحنجرة قليلاً ، بينما يظل الصوت صافياً ناعماً . ويظهر شعر فى منطقة جبل الزهرة ، والشفرين الكبيرين ، والإبطين .

والهدف الأسمى ، الذى تسعى إليه كافة هذه التغيرات عند حواء ، هو اكتمال جمال المنظر ، وحسن البنيان ، ورشاقة القوام ، وبهاء الطلعة ، ونعومة الملمس ، ونضارة الأنوثة وقوة جاذبيتها .

* * *

(٣) الأدواء : جمع داء جسميا كان أم خلقيا ونفسيا .

وليس الذكر كالأنثى
فى الحساسية البدنية

إذا كانت سمة الحساسية تبرز لدى الرجل فى فترات من مجرى حياته ، باعتباره إنساناً من الممكن أن يجرح أو يخدش أو يصاب ؛ فإن المرأة تمتاز عنه فى هذا الصدد من جوانب عديدة . سنتناول منها – هنا – جانباً واحداً ، هو حساسية المرأة البدنية ، التى تعد إحدى السمات المتوغلة فى كيانها ، والراسخة فى أعماقها ؛ فى الوقت الذى لا وجود لها عند الرجل .

وعلة ذلك أن وظائف أعضاء المرأة معرضة للإصابة بحكم ممارساتها الحياتية التى تمتاز بها عن الرجل ، بيد أن مثل هذه الإصابات تبدو كحوادث طبيعية فى وظائف الأعضاء .

والإصابات قد تكون من الخارج إلى الداخل ، مثل : اختراق خلية المنى لجدار البويضة ، وتمزيق العضو الذكرى لغشاء البكارة .

وقد تكون هذه الإصابات من الداخل إلى الخارج ، مثل : الحيض ، والولادة .

وقد تناول بعض العلماء هذه المسائل ، ووصفوا انفصال البويضة عن المبيض كل مرة بأنه مثل نموذجى للحساسية الأنثوية . وفى الحقيقة أن الأنسجة الخارجية ترق نتيجة نمو أكياس جراف نمواً تدريجياً ، وتتفجر عند انطلاق البويضة ؛ ومن ثم ينطلق الدم إلى فجوات الكيس ، وقد يلاحظ نزف خارجى ضئيل فى تجويف البطن . ولو أن النزف قد يكون كثيراً فى حالات استثنائية معينة . وتبدو ندبات على السطح الخارجى للمبيضين فى المرأة الناضجة . وشرح الإصابة الناتجة عن الحيض قد يتطلب إفاضة وإسهاباً . ولكن يكفى أن نعرف فى هذا الموضع أن الغشاء الهلامى للرحم يعد نفسه كل أربعة أسابيع لاستقبال بويضة ملحقة ، فإذا لم يتم إخصاب البويضة ماتت ، وانفصل الغشاء الهلامى انفصالاً شديداً أشبه بالقذف ، ولايبقى سوى الطبقات السفلى . ونتيجة لهذا

القذف يحدث نزف خارجي ، ويضم هذا النزف الغشاء الهلامي ، ويصبح كل الجدار الداخلى للرحم جرحاً مفتوحاً . وقد لا يكون الجرح غائراً عميقاً ، ولكنه مفتوح ، وهذا أمر خطير ؛ لأنه يجعل الباب مفتوحاً أمام الجراثيم المعدية .

وينتج عن التغيرات التى تحدث فى الجسم كله فى الظروف المختلفة – إصابة الحساسية الأساسية للمرأة بكثير من الأذى . وإذا كانت هذه التغيرات جزءاً من ظواهر الحياة الطبيعية ، فإنها غالباً ما تصبح أمراً مرضياً أو دليلاً على المرض أو تترك الباب مفتوحاً لأعراض المرض الحقيقية . وهذه التغيرات قد تنشأ عن ظروف تحدث فى الحياة مرة واحدة ، كبدء النضج الحسى وانتهائه . وقد تتكرر بين وقت وآخر ، أو لا تظهر مطلقاً ، كالحمل وعواقبه . وقد تعاود الظهور بانتظام ، كالحيض .

وفترة النضج الحسى ، تعتبر فترة بالغة الأهمية ، تتطلب من جسم المرأة مجهوداً كبيراً وضخماً . والسرعة الكبيرة التى تتم بها عملية النضج الحسى ، ينشأ عنها إجهاد بدنى ذو دلالة عميقة فى مرحلة المراهقة ، وغالباً ما يخلّف آثاراً ظاهرة وراءه . ويعتبر هو السبب فى ضعف بنية كثير من بنات حواء .

ويعد التغير الكبير ، الذى يحدث نتيجة انقطاع المبيض عن وظيفته ، من الأمور الهامة ؛ إذ أن فى هذه الفترة من التحول ، تبدو هذه الحساسية بمظاهر مختلفة تشبه مظاهر المرض .

وتنشأ عن مسايرة المرأة وتكيفها فى هذه الفترة عدة مطالب هامة ، يبلغ من ضخامتها اختراق حواء لحدود المرض ، بل قد تتجاوزها بكثير . فالحيض ينتج عنه انخفاض فى مستوى الوظائف الحيوية ، وهبوط فى الصحة العامة قد يكون كبيراً . والحمل والولادة والنفاس أمور تتطلب من جسم المرأة أعباء كبيرة جداً ، وينشأ عنها تغيرات واسعة النطاق ، قد تبلغ درجة الثورية والانقلاب .

وإخصاب البويضة ، ينشأ عنه إصابات بدنية ، تعتبر مظهراً للحساسية المميزة للمرأة . وهذه الحساسية ذات اتصال قوى بتلك التغيرات التى تميز المرأة فى كل وظيفة من وظائفها أثناء مرحلة النضج الحسى كلها . وتتجلى تلك الصفة

فى تلك الحركة الايقاعية المنتظمة التى تعتبر تغيراً بدنياً فى الاتزان وفى شدة الحياة . وتنشأ فى البويضة ، وفى نموها ، وفى قذفها ، وفى تقلب تأثيرها بألوانه المختلفة خلال فترة الانتظار قبل الإخصاب – فى إفرازات المبيضين الداخلية ، وفى موت البويضة إذا لم يحدث إخصاب . وإذا شئنا الدقة ؛ فإن هذه الظروف تنشأ بإنتاج البيض إنتاجاً لا ينقطع .

فالحساسية والتغيرات المنتظمة فى التوازن ، أى الحساسية والمرونة ، تعتبر من مميزات الجسم الأنثوى الذى تم نضجه .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
فى تكوين الحوض

ما هو الحوض ؟

الحوض هو الجزء السفلى المكمل لتجويف البطن ، الذى ينحصر بين العظمين اللاسم لهما من الأمام والجانبين ، وعظم العجز والعصعص من الخلف .

والحوض العظمى هو حلقة الاتصال بين الجذع كله والطرفين السفليين . فهو يعادل محور ثقل الجسم ؛ لحفظ توازنه فى الوقوف ، والمشى ، والجرى ، وسائر الحركات المختلفة . كما يوزع ثقل الجذع على الطرفين السفليين . ويقوم بحفظ الأعضاء الحوضية ومتعلقاتها ، كلا فى مكانه ، فى أمن وأمان ، بعيداً عن أى أذى أو ضرر .

وتشمل أعضاء الحوض الحقيقى : من الأمام المثانة ومتعلقاتها وجزءاً من قناة مجرى البول ، وفى الوسط أعضاء التناسل الباطنة ، أما فى الخلف فيوجد المستقيم والقناة الشرجية ؛ بالإضافة إلى العضلات والصفاقات ، والأربطة ، والأوعية ، والأعصاب ، والغدد ، والأوعية اللمفاوية .

لماذا يمتاز حوض الأنثى عن حوض الذكر ؟

من البدهى أن يمتاز حوض الأنثى عن حوض الذكر ؛ لأنه يقوم بدور هام يتطلب منه بعض المواصفات الضرورية التى لا يتطلبها حوض الذكر . وهذا الدور الهام هو نمو الجنين ، وتغذيته ، وصيانته ، وخروجه هو ومتعلقاته مثل المشيمة والأغشية إلى العالم الخارجى وقت الولادة . فكان لابد أن يتميز حوض الأنثى عن حوض الذكر حتى تتيسر عملية الحمل والولادة بالنسبة للأم وللطفل .

ما هى الاختلافات الموجودة بين حوض الأنثى وحوض الذكر ؟

يتمثل التميز والاختلاف بين الحوضين فى كون تجويف حوض الأنثى أوسع وأقصر ؛ وفى كون عظامه أرق ، وأقل خشونة ، وأبسط تضاريس .

وعن الفروق العديدة بين حوض الأنثى وحوض الذكر يخبرنا العلم الحديث بأن :

١ - مدخل حوض الأنثى أوسع كثيراً ، وشكله يكاد يكون شكل الكلية .. بينما يكون حوض الذكر أضيق ، وأكثر ارتفاعاً ، ويتخذ شكل القلب .

٢ - فى الأنثى ، يكون مخرج الحوض أوسع كثيراً منه فى الذكر .

٣ - فى الأنثى ، يكون تجويف الحوض بوجه عام أوسع حجماً وأقصر طولاً بين مدخله ومخرجه ، عن الذكر .

٤ - فى الأنثى ، الخطان اللاسم لهما ليسا بواضحين ؛ إذ أنهما أقل بروزاً ، مما يزيد فى طول الأقطار المستعرضة والمنحرفة فى حوض الأنثى عن حوض الذكر .

٥ - فى حوض الأنثى ، تكون الحدبتان الوركيتان متباعدتين بعضهما عن بعض ومائلتين أكثر إلى الوحشية ، أكثر مما فى حوض الذكر .

٦ - كذلك الشوكتان الوركيتان ، وباقى الشوكات مثل الشوكة الحرقفية الأمامية العليا ، تتجه كلها أكثر إلى الوحشية .

٧ - الحقان الحرقفيان متباعدان أكثر فى حوض الأنثى منهما فى حوض الذكر ، وكل حق منهما أصغر حجماً وأقل غوراً وأرق بنياناً فى الأنثى منه فى الذكر ؛ وذلك لسعة الحوض من جهة ، ولصغر حجم رأس عظم الفخذ من الجهة الأخرى بحوض الأنثى عنه فى حوض الذكر .

٨ - يوجد فى الأنثى ميزاب أمام السطح الأذنى لعظم الحرقفة كثيراً ما يتناسب اتساعه وغوره مع عدد مرات الحمل . ويعرف بالميزاب أمام السطح الأذنى ، أو بميزاب « درى » وهو أول من لفت إليه النظر . وغير موجود غالباً فى حوض الذكر .

٩ - فى الأنثى ، يكون الثقب المسدود مستعرضاً وثلاثى الشكل وأصغر حجماً ، بينما يكون أكثر استدارة فى حوض الذكر .

١٠ - الشرم الوركى الكبير أكثر اتساعاً وأقل غوراً فى حوض الأنثى منه فى حوض الذكر .

١١ - فى الأنثى ، يكوِّن التقوس العانى زاوية تزيد كثيراً عن الزاوية القائمة ، أما

فى الذكر فتنقص عن الزاوية القائمة ؛ إذ أن كثيراً ما تزيد فى الأنثى عن الزاوية القائمة ، وهذا مالا يحدث فى حوض الذكر .

١٢ – فى الأنثى ، جسم عظم العانة عريض وقصير جداً بالنسبة لجسم العانة فى حوض الذكر .

١٣ – فى حوض الأنثى ، العظم الوركى عريض وقصير عن حوض الذكر .

١٤ – فى الأنثى ، الزاوية القطنية العجزية أقل بروزاً للأمام ، أى لداخل الحوض ، منها فى الذكر ؛ مما يزيد القطر الأمامى الخلفى فى حوض الأنثى .

١٥ – فى الأنثى ، يكون العصعص أكثر قابلية للحركة ، منه فى حوض الذكر .

ويتيسر غالباً تَبَيُّن الفروق بين عجز الأنثى وعجز الذكر ، كالآتى :

١ – فى الأنثى ، أقصر وأعرض لدرجة يكاد يتساوى قطراه الطولى والمستعرض . أما فى الذكر ، فهو أطول وأضيق ، ويكاد يكون عرضه ثلثى طوله .

٢ – فى عجز الأنثى ، انحناء السطح الأمامى فى جزئه العلوى بسيط جداً ، يكاد يكون مستويا دائماً ، ويمتاز بانحناء كبير و بزاوية واضحة قرب منتصفة فى جزئه السفلى . أما فى الذكر ، فانحناء السطح الأمامى انحناءٌ تدريجياً منتظماً للسطح كله .

٣ – فى عجز الأنثى ، يتجه السطح الأمامى إلى أسفل بدرجة أكبر منها فى الذكر ، ويترتب على ذلك أن الزاوية القطنية العجزية فيه تكون أكثر وضوحاً .

٤ – فى الأنثى ، السطح المفصلى الحرقفى العجزى أذنى الشكل أقل طولاً منه فى الذكر ؛ حيث إنه فى الأنثى قد لا يتجاوز الفقرتين كثيراً ، ولكنه فى الذكر يصل إلى ثلاث فقرات وقد يزيد .

ويجب أن نلاحظ أن عظام هيكل الأنثى بصفة عامة تشارك عظام الحوض بقسط وافر فى السمات الأنثوية ؛ حيث إنها تتميز برقة عظامها ، وبساطة تضاريسها ، وقلة خشونتها ، وزيادة نعومتها ، وقلة عمق حفرها ، وصغر شوكاتها .

ليس الذكر كالأنثى
فى أعضاء التناسل

يبدو التباين بين أعضاء التناسل الذكرية والأنثوية من أول نظرة فى : الوضع ، والامتداد ، والتشعب .

وإذا نظرنا إلى هذه الأعضاء ، من وجهة رياضية ، وجدناها متكافئة القيم ؛ بيد أنها مزودة بعلامات متعاكسة ، وتشبه قفازين متشابكين ، أحدهما وُضِعَ من الخارج والآخر من الداخل .

فالجهاز الأنثوى هو الوجهة السلبية المجوفة ؛ إذ أن وظيفته استلام الخلايا الجنسية . أما الجهاز الذكرى ، فهو الوجهة الإيجابية البارزة ، وفقاً لطبيعته المكلفة بدفع الخلايا .

وأعضاء التناسل الأنثوية والذكرية تنقسم إلى :
- أعضاء تناسلية ظاهرة .
- أعضاء تناسلية باطنة .

وسنبدأ الحديث بالكلام عن أعضاء التناسل الأنثوية ، ثم نتمه بالكلام عن أعضاء التناسل الذكرية ؛ ذلك حتى تتضح لنا الرؤية ، ونتبين مدى الاختلاف والتناقض بين الجنسين فى هذا الجانب الحيوى الهام .

أعضاء التناسل الأنثوية الظاهرة

يتألف الجهاز التناسلى الظاهرى للأنثى من :

١ – الشفرين الكبيرين .
٢ – الشفرين الصغيرين .
٣ – الدهليز .
٤ – البظر .

٥ – فتحة الفرج (فتحة المهبل) .
٦ – غشاء البكارة .
٧ – بصلتى المهبل .
٨ – غدتى بصلتى المهبل .

ذلكم كان الإجمال ، وهاكم بعض التفصيل :

١ – الشفران الكبيران :

يمثلان سبباً هاما من الأسباب التى تبعث على خجل الأنثى واستحيائها . وهما لحميان سميكان ، يحيط بهما شعر كثيف ، ويتلامسان بحافتيهما ؛ فيحجبان باقى الأعضاء الأنثوية الظاهرة ؛ ولذلك يمثلان أكثر أعضاء الأنوثة الظاهرة ظهوراً .

٢ – الشفران الصغيران :

وهما عبارة عن بروزين طوليين من الجلد ، وهما أضيق وأصغر من الشفرين الكبيرين ، ويقعان خلفهما وبينهما ، كطفلين صغيرين استبد بهما الخجل فلاذا بظل والديهما . وهما يحيطان بفتحة الفرج والصماخ البولى ، ويضيقان ويتقاربان فى الأمام ليتعانقا حول قاعدة البظر ولكنهما ينفرجان ويتضاءلان كلما ابتعدا عن البظر حتى يختفيا فى الجلد الممتد بين الفرج و الشرج . ويتصف الجلد الذى يغطى الشفرين الصغيرين بأنه : وردى اللون ، وأملس ناعم رقيق .

٣ – الدهليز :

هو عبارة عن المسافة الواقعة بين الشفرين الصغرين إذا ما أبعد أحدهما عن الآخر . وأبين ما فى الدهليز : فتحة الفرج ، الصماخ البولى الخارجى ، فتحة غدة بصلة المهبل (واحد على كل ناحية) .

٤ – البظر :

وهو يقع فى مقدمة الأعضاء التناسلية الظاهرة ، وفوق فتحة البول . وهو العضو الأكثر حساسية عند الأنثى . وهو يشبه عضو الرجل من الوجهة

التكوينية ، ولكنهما مع ذلك يختلفان من وجهتين رئيسيتين ، أولهما : أن قناة مجرى البول لا تتخذ مكانها وسط وأسفل جسم البظر كما تفعل فى عضو الرجل ، وثانيهما : أن البظر أصغر حجماً بكثير من عضو الرجل .

وهو يتركب من قائمتين نسيجهما إسفنجي انتصابى ، يتحدان معاً لتكوين جسم البظر الذى يبلغ طوله سنتيمتراً ونصف سنتيمتر . وينتهى من الأمام بجزء مخروطى الشكل هو « حشفة البظر » التى تحاكى حشفة القضيب .

٥ - فتحة الفرج :

فتحة الفرج هى الطرف الانتهائى الظاهر للمهبل ، بين الشفرين الصغيرين خلف الصماخ البولى الظاهر ، وأمام اتحاد الطرفين الخلفيين لكل من الشفرين الصغيرين والكبيرين . وتختلف شكلاً واتساعاً تبعاً لحالة غشاء البكارة ، فإن كان موجوداً كانت هذه الفتحة ضيقة تكاد لا ترى إلا بنشر الغشاء ، وإن كان قد تمزق فتظهر الفتحة واضحة وحولها نتوءات صغيرة هى مخلفات ذلك الغشاء .

٦ - غشاء البكارة :

وهذا الغشاء يغلق فتحة الفرج الظاهرة عند الأبكار . ويختلف شكلاً وحجماً فى بنت عنها فى أخرى ، وشكله هلالى غالباً ، وقد يكون غربالياً أو حلقياً . وسده لفتحة الفرج إنما يكون سداً جزئياً غير كامل ؛ إذ به فتحة تسمح بمرور دم الحيض ، وإذا لم يوجد به هذه الفتحة فيتحتم عمل فتحة صناعية به بعد سن البلوغ . ويتمزق الغشاء فى أول اتصال جنسى مع العذراء ، ويصاحب الإدخال فقدان قليل أو كثير من الدماء ، ويقال حينئذ بأن البكارة قد فضت . وتمزق الغشاء هو الذى يميز بين البنت البكر والمرأة الثيب ، وتوجد اختلافات وفوارق جسمانية ونفسانية متنوعة بينهما . أما تلك التى لم يتمزق غشاؤها تماماً ، إذ يكون متمدداً بسبب الملامسات أو الاتصالات الجنسية المتحفظة ؛ فتدعى « نصف عذراء » .

٧ - بصلتا المهبل :

بصلتا المهبل هما عبارة عن جسمين دمويين انتصابيين ، يوجد كل واحد منهما على ناحية من فتحة المهبل الانتهائية . وهما يقابلان بصلة القضيب فى الرجل ، غير أن القناة المهبلية وقناة مجرى البول بمرورهما وسط الحجاب الحاجز البولى التناسلى قد شطراه إلى نصفين كما شطرا البصلة إلى جزأين كذلك، وإن كانا منفصلين إلا أنهما يتصلان من الأمام بين الصماخ الظاهر والبظر بواسطة ألياف انتصابية وريدية تعرف بالموصل البصلى . ويمتد هذا النسيج حتى يتصل بنسيج حشفة البظر وغلفته .

٨ - غدتا بصلتى المهبل :

وهما غدتان كبيرتان واقعتان فى مدخل المهبل ، وتعرفان بغدتى « بارتولين » لأن أول من اكتشفهما كان المشرّح « كاسبار بارتولين » . وتكون غدة بارتولين عادة بحجم حبة الأرز ، إلا أنها تبلغ فى حالة الورم حجم البيضة .

الصماخ البولى الظاهر :

وهو عبارة عن الطرف الانتهائى والظاهر لقناة مجرى البول ، ويقع أعلى فتحة الفرج مباشرة وأسفل البظر . ويحيط بالصماخ البولى هذا بروز دائرى يسهل التعرف عليه بمجرد اللمس الذى هو أفضل وأسهل من الرؤية .

* * *

أعضاء التناسل الأنثوية الباطنة

تتألف أعضاء التناسل الباطنة فى الأنثى من :

١ – المبيضين .

٢ – الرحم .

٣ – قناتى الرحم .

٤ – المهبل .

ذلكم كان الإجمال ، وهاكم بعض التفصيل :

١ – المبيضان :

تدعى الغدد التناسلية عند المرأة باسم « المبايض » . ولدى كل أنثى مبيضان فقط ، هما بمثابة الخصيتين عند الذكر منشأ ، وتكويناً ، وعملاً ، ويقعان على جانبى الحوض .

ويتركب المبيض من حويصلات مبيضية تعرف « بحويصلات جراف »(٤) تنضج تباعاً . وكل حويصلة إذا حان دورها يكبر حجمها ، وتزداد خلاياها وتكثر وتكبر أوعيتها ثم تقترب تدريجياً من السطح استعداداً لانفجارها وخروجها حرة طليقة ؛ فلم نكن نحن على جلال قدرنا وسمو تطلعنا واتساع حضارتنا إلا « بويضات » ثاوية فى مبيض أنثى . وأول عمل نقوم به لإثبات وجودنا – تقريباً – فى هذه الدنيا .. هو محاولة الانطلاق من السجن المطبق « المبيض » وتلك هى أول ثورة من أجل الحرية يقوم بها الإنسان قبل أن يصبح بشراً سوياً . فالمبيض المغلق من جميع الجهات هو رمز الأمومة التى تحيط أبناءها بنسيج واق ، والبويضة التى تنسل منها هى مثال الابن الناضج البالغ الذى لم يعد بحاجة إلى الوصاية ، فيأبى الحجز ويتملص من الاحتضان الأموى لينطلق فى أجواء الكون تلفه حرية الإرادة .

---

(٤) نسبة إلى الطبيب الذى اكتشفها .

٢ - الرحم :

الرحم عضو عضلى أجوف ، كمثرى الشكل ، عضلاته ناعمة لا إرادية (أى لا رأى لصاحبتها فى تقلصها وبسطها) ، تنسجها ألياف مرنة مطاطة ، ويبطنها من الداخل غشاء مخاطى (بطانة الرحم) ، ومن الخارج الغشاء البريتونى . ويسمى الجزء العريض الأعلى من الرحم باسم « جسم الرحم » ، بينما يسمى الجزء الضيق الأسفل « عنق الرحم » .. وإذا أردنا مثالاً توضيحياً لذلك ، فلنحفر إجاصة (كمثراة) متوسطة الحجم من رأسها كما (تحفر الكوسا) حتى تستوعب الحفرة جوزة صغيرة ، ولنجعل رأس الكمثراة مقلوباً إلى الأسفل ، فالشكل الناتج مشابه لشكل الرحم تماماً .

وحجم الرحم الطبيعى لا يتعدى قبضة اليد العادية لفتاة لها من العمر اثنا عشر عاماً ، ولكنه يكبر ، وتتضخم كتله العضلية أثناء الحمل بشكل لا يكاد يصدق ؛ إذ تغدو متسعة لبطيخة قطرها ٤٠ سنتيمتراً . وتصل الرحم فى نهاية الحمل إلى أعلى ناحية المعدة لينتفخ بطن الحامل بسببها . وبهذا يتطور جوف الرحم من ضيق لا يستوعب معه جوزة واحدة إلى اتساع يحتوى طفلاً يتراوح وزنه بين الثلاثة والخمسة الكيلوغرامات ، فضلاً عن احتوائه أيضاً المائع الامينيوسى (ماء الرأس) ، وعلى المشيمة (الخلاص) التى تملأ أكثر من صحن (شوربا) .

وللرحم عمل حيوى معقد ، وأهم أعماله تتمثل فى تلقى البويضة المخصبة القادمة من ممر المبيض ، ثم حفظها فى جدران الرحم المخاطية ، وتغذيتها ، بواسطة امتدادات حقيقية ، كما لو كانت بذوراً تضرب فى الأرض ؛ فهى تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين حتى يخرج إلى نور الحياة .

فالرحم هو المكان الأمين ، والقرار المكين ، الذى تنمو فيه البذرة البشرية وتترعرع بداخله حميلاً وجنيناً ، حتى يأتى الوقت المناسب (فى نهاية الشهر التاسع غالباً) ، فيقذفها الرحم إلى الحياة الدنيا بعد أن صارت بشراً سوياً .

ونظراً لأهمية الرحم تلك ؛ فقد أولاه الإسلام عناية خاصة ، تنم عن تقدير واحترام عظيمين .

وللرحم معنيان فى القرآن الكريم :

المعنى الأول : موضعُ تكوين الجنين .
المعنى الثانى : القرابةُ أو أسبابُها .

وجاء الرحم بالمعنى الأول فى آيات متعددة ، منها :

﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ ..
﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ ..
﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ ..

وجاء الرحم بالمعنى الثانى فى آيات متعددة ، منها :
﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾..
﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ..

وقد تناول الرسول الكريم بيان أهمية الرحم فى أحاديث عديدة ، منها على سبيل المثال :
« لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ »[٥] .. قال سفيان فى روايته : يعنى قاطع رحم .
« من سره أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ فى أثره ، فليصل رحمه »[٦]..
« الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله »[٧]..

---

(٥) متفق عليه .
(٦) متفق عليه .
(٧) متفق عليه .

٣ - قناتا الرحم :

يوجد للرحم قناتان رحميتان ، واحدة على كل ناحية . والقناة الرحمية عبارة عن قناة عضلية مخاطية ضيقة ، تصل تجويف البريتون الحوضى بتجويف الرحم : وتقع فى الحافة العليا للرباط العريض الرحمى . طولها حوالى ١٠ سنتيمترات .

وفى داخل كل قناة ثنايا وأخاديد لا حصر لها ، كلها مجهزة بأهداب مهتزة دائمة الحركة لا تنى عن الارتعاش ، تشكل تياراً شعرياً هدبياً متجهاً نحو الرحم ، وتشبه فى حركتها واهتزازها حركة المكنسة أو اهتزاز سنابل القمح فى حقل رفت عليه نسائم الصباح . ولهذه الاهتزازات فائدتان :

الفائدة الأولى : أنها تسوق البويضة نحو الرحم لتستقبل نصفها الآخر (الحيوان المنوى) .

الفائدة الثانية : أنها تعين الحيوان المنوى وتدله على عروسه التى تنتظره فى بعض الطريق ؛ لأن هذه الاهتزازات تهيج الحيوانات المنوية المغرمة بالسباحة ضد التيار . فالتيار الشعرى الهدبى هذا يساعد على جمع الخليتين التناسليتين وكأنه المأذون الشرعى الذى يقرب بين الجنسين ويبارك لقاءهما على سنة الله فى استمرار النوع البشرى على الأرض . وبعد اندماج الخليتين يوالى التيار الشعرى اهتزازاته الرتيبة دافعاً بالبويضة الملقحة إلى الرحم ، حيث تجد الدفء والغذاء والمكان الفسيح .

٤ - المهبل :

هو عبارة عن قناة عضلية مخاطية انتصابية ، تمتد من عنق الرحم إلى فتحة الفرج . والمهبل هو العضو الأنثوى الخاص بالجماع ، وهو السبيل لخروج محتويات الرحم ، وبخاصة فى فترات الطمث والولادة . ويتراوح طول المهبل بين ٧,٥ سم و١٠ سم ، ويغطيه من الداخل غشاء مخاطى وردى متين القوام ، ولكن سمك جدرانه لا تتجاوز ٤ ملليمترات فقط ، فهو رقيق حقاً ، ولكنه قابل للامتداد والاتساع .. وهاتان الصفتان تميزان المهبل ، وهما لازمتان له حتى يستطيع أن يؤدى واجبه عند الولادة .

وتقوم جدر المهبل الوردية الحارة الملمس بفرز عصير حليبي اللون غير لزج ، يشبه الحامض القلوى الناصع . ويحوى هذا العصير ، كما يحوى اللعاب والأمعاء - مجموعة من الجراثيم العاطلة التى لا تؤذى ولا تضر ، ولكنها تفرز حامضاً شبيهاً بحامض اللبن . وينفرد المهبل من بين جميع أعضاء الإنسان بإفراز الحامض ، بينما مفرزات غدد الجسم قلوية . وتقوم مفرزات المهبل الحامضية الخفيفة (بنسبة واحد بالمائة) بحماية الجهاز التناسلى الأنثوى من شر الجراثيم الممرضة الضارة ، فهى عملية تطهير طبيعية ناجحة .

غدة الثدى :

هى غدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعضاء التناسل . وهى غير كاملة النمو فى الذكر ؛ إذ يتوقف نموها منذ الطفولة . أما فى الأنثى ، فيتم نموها عند البلوغ أو قبيله . ويتكون الثدى من غدد لبنية كثيرة ، لها قنوات تتصل ببعضها البعض ؛ حتى تنتهى فى حلمة الثدى . وهذه الغدد اللبنية تظل فى حالة سكون حتى موعد الحمل ؛ حيث تتأثر بهرمونات الحمل ، ويزداد حجمها استعداداً لإفراز اللبن .

ويرجع حجم واستدارة الثدى إلى وجود فصوص دهنية عديدة ، وبعض هذه الفصوص كبير .

ويختلف حجم وقوام وصلابة الثدى من امرأة إلى أخرى بسبب تدخل عوامل متباينة ، من الأفضل للقارىء المتعمق أن يرجع إليها فى الكتب المتخصصة .

* * *

أعضاء التناسل الذكرية الظاهرة

تتكون أعضاء التناسل الظاهرة فى الذكر من :

١ – الخصيتين .

٢ – البربخ .

٣ – العضو التناسلى .

ذلكم كان الإجمال ، وهاكم التفصيل .

١ – الخصيتان :

هما عبارة عن جسمين بيضاويين ، موضوعين فى الصفن (غلاف جلدى مربوط بين الفخذين فى أسفل الجذع) وضعاً مائلاً ، والخصية اليسرى نازلة قليلاً عن اليمنى ، وحجمها أكبر قليلاً منها ؛ ولذلك يستطيعان الحركة فى أمن وسهولة تبعاً لضرورة حركات الجسم المختلفة .

ويتراوح طول الخصية الناضجة بين ٤ و٤,٥ سم ولا تتعدى ٥ سم . وعرضها يتراوح بين ٢ و٢,٨ سم . ووزنها يتراوح بين ١٥ و٢٦ جراماً .

والمسئولية المنوطة بالخصيتين هى انتاج الحيوانات المنوية اللازمة لعملية الإخصاب والإنجاب . والخصية فى هذا تقابل المبيض فى الأنثى ؛ فإذا حدث خلل فى إنتاج الحيوانات المنوية فإنه يؤدى إلى العقم أو عدم القدرة على الإنجاب .

والخصيتان تتكونان فى الجنين داخل تجويف البطن ، وبنمو الجنين تبدأ الخصية فى النزول تدريجياً إلى كيس الصفن . والسبب فى نزول الخصية إلى كيس الصفن هو أن درجة الحرارة المناسبة لعملية تكوين الحيوان المنوى تكون أقل من درجة حرارة جسم الإنسان بحوالى نصف درجة مئوية ، وهذه الظروف لا تتوفر إذا كانت الخصية داخل تجويف البطن .

وتتكون الخصية من مئات الآلاف من أنابيب طويلة وملتفة حول نفسها عدة مرات ، وتسمى « القنوات المنوية » . وكل من هذه الأنابيب مغلفة بعدة طبقات من الخلايا تمثل المراحل المتعددة لنمو الحيوان المنوى حتى يصل إلى صورته النهائية ، وتتجمع كل هذه القنوات فى قنوات أخرى أكبر منها لتكون ما يسمى « البربخ » .

٢ - البربخ :

يوجد على الجانب الخلفى والجانبى للخصية . ووظيفته هى توصيل الحيوانات المنوية التى تنتقل إليه من الخصية عن طريق قنوات دقيقة إلى الوعاء الناقل الذى ينقلها بدوره إلى الحويصلات المنوية .

٣ - العضو التناسلى :

هو العضو البارز المدلى ، يبلغ طول الإصبع . وله جزء خلفى هو الجذر . ورغم أن هذا الجزء يخفى على النظر إلا أنه يمكن الإحساس به بواسطة الأصابع .

وهو يقابل البظر فى الأنثى ، إلا أنه أكبر منه حجماً من جهة ، ومن جهة أخرى تمر قناة مجرى البول بين نسيجه ومن أسفله ؛ وبهاتين الوجهتين يختلف عضو الذكر عن البظر .

* * *

أعضاء التناسل الذكرية الباطنة

تشمل أعضاء التناسل الباطنة فى الذكر :

١ – الوعاء الناقل .

٢ – الحويصلة المنوية .

٣ – غدة البروستاتا .

٤ – قناة مجرى البول حتى وصولها إلى العضو التناسلى .

ذلكم كان الإجمال ، وهاكم التفصيل .

١ – الوعاء الناقل :

يبدأ من ذيل البربخ بجوار الخصية ، ثم ينتقل إلى تجويف البطن عبر الحبل المنوى ليتجه بعد ذلك إلى الحوض وينتهى عند الحويصلات المنوية ليمتد من قناتها مكوناً القناة القاذفة . ووظيفة الوعاء الناقل هى توصيل الحيوانات المنوية من البربخ حتى القناة القاذفة ..

٢ – الحويصلات المنوية :

هى قناة متعرجة على نفسها ، يتراوح طولها بين ٤ و٥ سم ، وعرضها ٢ سم ، وسمكها واحد سم . توجد واحدة على كل ناحية بين قاع المثانة من الأمام والمستقيم من الخلف .

ووظيفتها حفظ السائل المنوى ، كما أنها تفرز سائلاً هاماً يقوم بتغذية الحيوانات المنوية أثناء رحلتها فى جسم الأنثى .

٣ – غدة البروستاتا :

توجد أسفل المثانة وحول عنقها ، وتتكون من عدد كبير من الغدد الأنبوبية التى توصل إفرازاتها عن طريق القنوات البروستاتية إلى الجزء الخلفى من قناة مجرى البول .

وهذه الغدة تفرز سائلاً لبنياً فى بياضه ، وإليها يعود سبب اكتساب السائل المنوى رائحته المميزة ولونه الأبيض . وتستمر غدة البروستاتا فى الإفراز بصورة غير متقطعة ، بيد أن إفرازها يزداد أثناء الدفق ، وهو عبارة عن سائل لزج خيطى ، تكثر فى مواد : اللسيتين ، والتوتيا ، والمنوين . وترجع رائحة المنى إلى هذه المادة .

ويظل المنى ساكناً عديم الحركة ، يُدْفَعُ آلياً إلى أعلى ، لا رأى له فى سيره هذا ، حتى يصل إلى البروستاتا ويلامس إفرازها ؛ فيأخذ فى التذبذب والحركة الذاتية .

وإذا أردنا ملخصاً لوظائف غدة البروستاتا ، فهى بها من السائل ما ينشط الحيوانات المنوية ويحفظها ، فضلاً عن أن لها عصيرها الداخلى ذا الأثر البين كغدة صماء . كما أن لها إفرازاً خارجياً يصحب الحيوانات المنوية والسائل المنوى للحويصلات المنوية أثناء مرورها بالجزء البروستاتى لقناة مجرى البول .

٤ – قناة مجرى البول حتى وصولها إلى العضو التناسلى :

هى قناة ليفية عضلية مخاطية ، وبها نسيج انتصابى مثل نسيج القضيب ، وتبدأ من الفتحة الداخلية بعنق المثانة .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
فى طبيعة الشهوة الجنسية[٨]

بثَّ الله تعالى فى كل جنس حباً وميلاً للجنس الآخر ؛ حتى غدا كل منهما يشتهى الآخر ، ويتطلع إلى اللقاء به .

وإذا كانت الشهوة الجنسية تهدف إلى تحقيق اللذة والسعادة لكل من الجنسين ، فهى تهدف أيضاً إلى استمرار الحياة الإنسانية جيلاً بعد جيل ؛ لأنه إذا لم تعوض الذرارى ما يتخطفه الموت من بنى الإنسان ، فاضمحلال البشرية أمر لا محالة واقع .

ووفقاً لسنة الله تعالى فى الطبيعة ، كان لابد أن يختلف الجنسان فى طبائعهما ، خاصة فى طبيعة الشهوة الجنسية ؛ حتى إذا ما التقى الاثنان وجد كل منهما عند الآخر ما ليس موجوداً عنده ولا عند أمثاله .

فشهوة الرجل الجنسية تباين شهوة المرأة ؛ حيث إنه بطبيعة وظيفته يتميز بالشهوة الجامحة الملحة الجريئة ؛ حتى إنه ليروح يبحث عن المرأة مدققاً فى طبائعها المختلفة ، وعندما يهتدى إلى شريكة مناسبة لذوقه – يحرص كالصياد على اقتناصها ، ويختلق الحيل بدون تردد . وكلما ازداد اقترابا منها زاد نشاط الهرمون فى المخ واشتدت شهوته ورغبته فيها .

وإذا أردنا البساطة والصدق فى التعبير عن التباين بين الرجل والمرأة فى هذا الأمر ، فلن نجد أفضل من هذه العبارة « الرجل يعطى ، والمرأة تأخذ » ؛ فهذه العبارة البسيطة الواضحة تظهرنا على مفتاح الاختلاف بين شهوتى الرجل والمرأة .

الرجل يحاول الانقضاض ، والمرأة تندفع إلى الاستسلام ..

الرجل يشبه ضارب الحصار ، والمرأة تشبه الحصن المحاصر ..

---

(٨) رغم أن هذا الفصل تبدو عليه المسحة السيكولوجية ، إلا أنه لابأس من إدراجه فى هذا القسم

الرجل هو الإبرة التى ترتمى بحمية على المغناطيس ، والمرأة تكون ظاهرياً فى حالة سكون ، بينما تلعب خفية دور المغناطيس الجنسى الدائم ..

وظيفة المغناطيس هى الجذب الممغنط ، ووظيفة المرأة هى الجذب الجنسى . وقد تنشط هذه الوظيفة لدرجة تجعل الجذب ثانى طبيعة فيها . ويمكن القول بأنه قد يصبح جوهرها بالذات .

فالمرأة الصحيحة البنية والبعيدة عن روح الرجولة تعيش حياتها كلها معتنية كل الاعتناء بمظاهر أنوثتها التى تجعلها مركز جذب دائم للرجل .

والشهوة تدفع الرجل ليحصل على امرأة تبادله العمل الجنسى . وهذه الشهوة يستفحل أمرها فيه فتحثه على الهجوم . أما فى المرأة فتقوى جاذبيتها وتتوزع فى جميع أنحاء جسمها دون التقيد بالأنحاء الجنسية وحدها . فالشهوة فى المرأة أعم وأكثر طهراً ونبلاً منها فى الرجل .

والرجل بسماته وطباعه يقترب من الغريزة الحيوانية ؛ فهو نوع من « القنطورس » : نصفه الأسفل حيوان ، ونصفه الأعلى ملاك . أما المرأة ، فعكسه ؛ إذ إنها وحدة منسجمة لا تختلف فى ذاتها .

والشهوة تقف عند المرأة حين تصبح حاملاً . ولهذا لا تطلب الجماع لمجرد اللذة ، بل تتوق نفسها لأمر ثابت ومستديم . أما الرجل ، فيفرغ خلاياه الجنسية ليلتحق بعمله فى الحال ، بينما تود المرأة أن تكون زوجة محبوبة يرعاها باهتمام بالغ ومستمر ، وهذا هو سبب عدم الانسجام المؤلم . والرجل منطقى بطبعه ؛ ولذا نراه يستسلم لغرائزه ، فيضع النسل فى أحشاء زوجته ، ويظن أن واجبه قد انتهى عند هذا الحد ، وما إن ينتهى اللقاء حتى ينهمك فى إعداد محاضرة يلقيها فى الغد أو سفر سيقوم به بعد غد . وفى هذه الأثناء تذهب خلاياه الجنسية فى أحشاء زوجته لتفتش عن البويضة ، وتمضى تسعة أشهر يكون فيها قد نسى مغامرته الجنسية ؛ فتضع المرأة ثمرة الحب طفلاً يحتاج لإعالة وتربية لمدة سنين طويلة . ألا يكون لها بعد ذلك حق التمسك بالرباط الزوجى ؟ وبينما يكون الاتصال الجنسى

مغامرة عابرة بالنسبة للرجل ، يكون بالنسبة للمرأة مليئاً بالاحتمالات التى تتعلق بشخصها وتقرير مصيرها .

إن الآثار العديدة التى تترتب على اللقاء الجنسى بالنسبة للمرأة ، جعلتها تتردد قبل الاستسلام . وقد أحاط الله تعالى المرأة بحصنين : أحدهما جسمانى ، والآخر نفسانى . فالجسمانى هو غشاء البكارة ، والنفسانى هو الحياء الأنثوى . والمرأة العفيفة تتحفظ كثيراً فى القضايا الجنسية رغم أنها تميل داخلياً للرجل ، ولكن حالما تصل إلى بيتها تطرح هذا التحفظ جانباً . وغشاء البكارة رغم أنه لا يعتبر حصناً يستحيل اجتيازه ، إلا أنه عائق يعرقل الطريق بعض الشيء . فعلى الرجل أن يتظاهر بالحزم والجد مبرهناً أنه قادر على اجتياز هذا العائق ، وكأن الفتاة تقول لزوجها : « اجتزه واحصل علىّ ! » ، أما هو فلا يتراجع ، وكلما كان العائق قوياً ازدادت شهوته وقَوِىَ إقباله .

* * *

ليس الذكر كالأنثى

« الحمل »

بما أن الحمل يمثل أحد الفواصل الحديدية بين الأنثى والذكر ، أرى لزاماً علينا أن نتعرض له فى هذا الكتاب ، محاولين بالدرجة الأولى أن نتعرف على آثاره المتنوعة والعديدة على المرأة .

سبب حدوث الحمل :

الحمل يحدث نتيجة اتحاد الحيوان المنوى الناضج بالبويضة الناضجة ، الذى يقع عادة فى القناة الرحمية . ويحدث الاتحاد أو الإخصاب بواسطة حيوان منوى واحد ، يأتى إلى البويضة من المهبل لتجويف العنق وتجويف الرحم والقناة الرحمية مدفوعاً بحركاته الذاتية وبجاذبية كيماوية حيوية بالغشاء المخاطى بعنق الرحم ، حتى إذا ما دخل حيوان منوى واحد البويضة تحصن البويضة نفسها ضد دخول أى حيوان آخر غيره .

وبعد إتمام الإخصاب مباشرة تنقسم البويضة ، ويبدأ الحمل عندما تصل البويضة إلى تجويف الرحم وتكون قد بلغت « دورها التوتى » . وتتمكن الجرثومة التوتية بخلاياها السطحية من أن تشق لنفسها طريقاً بين خلايا طبقات الغشاء المخاطى المبطن لتجويف الرحم ، الذى يتضخم كثيراً ؛ حيث يصل فى نهاية الأسبوع الثانى للحمل إلى نصف السنتيمتر ثخانة ، وبذلك تصل البويضة إلى آخر طبقاته ، وسرعان ما يغطيها الغشاء المخاطى الذى يشمل حينئذ ثلاثة أجزاء :

١ – الغشاء الساقط القاعدى : وهو الجزء الذى بين الجنين وبين جدار الرحم .
٢ – الغشاء المحفظى : وهو الجزء بين الجنين وتجويف الرحم الذى يغلف الجنين .
٣ – الغشاء الساقط الحقيقى : وهو الجزء الذى يبطن جدار الرحم الداخلى .

تغيرات الرحم :

ويواكب الحمل جملة تغيرات بالرحم ، علاوة على تضخم غشائه المخاطى ، فيتضخم كذلك جداره العضلى كثيراً ، ويكبر تجويفه إلى سعة خمسة أو سبعة لترات بعد أن كان لا يتسع لأكثر من سنتيمترين مكعبين فى سيدة لم تحمل بعد ، كما تتضخم الأوردة والشرايين وكذلك الغدد تباعاً أيضاً بنسبة واحدة .

تغيرات الثديين :

ومن هذه التغيرات ما يتناول الثديين ، فيغدو كل ثدى أكبر حجماً ، وأكثر تكوراً ، وأشد صلابة . كما تبدو حلمة الثدى أكبر حجماً ، وأكثر ظهوراً . ويحيط بالحلمة حينئذ منطقتان متتابعتان متلاحقتان ؛ فالمنطقة حول الحلمة مباشرة تعرف بمنطقة « الهالة الأصلية » التى يدكن لونها كثيراً ، وتكبر ، وتكثر غددها التى تحت الجلد وتظهر بوضوح ، وهى الغدد المعروفة « بغدد منتجومرى » . أما المنطقة الثانية ، فتعرف « بالهالة الثانوية » ، وأظهر ما فيها دكانة لونها ، واتساع أوردتها السطحية بشكل غير مألوف ولا ملحوظ إلا فى أوقات الحمل .

تغيرات القلب والجهاز الدورى :

إذا كان القلب قبل الحمل يقوم بضخ الدم للأم فقط ، ويعادل ما يضخه ٦٥٠٠ لتر يومياً – فإن عليه طوال الحمل، ولاسيما الفترة الأخيرة منه، أن يضخ كمية مضاعفة من الدم تكفى الأم و جنينها ، وهذه الكمية تعادل ١٥٠٠٠ لتر يومياً .

وحتى يستطيع القلب أن يؤدى هذا العمل الإضافى ، يقوم بتقوية ضرباته ، وبالإسراع من نبضاته ؛ مما يترتب عليه ازدياد حجمه ازدياداً يسيراً .

ونتيجة لكون الجنين يأخذ من دم أمه ما يلزمه من العناصر الضرورية لتكوين دمه ؛ فإن الأم غالباً ما تصاب بفقر الدم الذى له تأثيره على القلب والدورة الدموية .

ويؤدى ضغط الرحم على مسار الدم العائد من الأطراف إلى القلب إلى تمدد وامتلاء وتعرج الأوردة المسئولة عن هذه المهمة ، وتسمى حينئذ بـ « الدوالى » .

تغيرات الغدد الصماء :

الغدد الصماء هى جملة غدد ضرورية جداً للحياة ، لها قدرة على الإفراز ، وليس لها قنوات ؛ ولذلك سميت بالغدد الصماء . وعملها القيام بتحضير إفراز داخلى يصل مباشرة من خلاياها العديدة إما إلى الدورة الدموية أو إلى الدورة اللمفاوية ومنها إلى الدورة الدموية .

وتعمل هذه الغدد بشكل طبيعى عادة ، إلا أنها فى فترة الحمل تنتابها بعض التوترات . وعلى سبيل المثال تزداد نسبة الهرمونات التى لها علاقة بالحمل ، مثل هرمونات المشيمة والأستروجين والبروجسترون . كذلك تزداد كمية الماء فى جسم الحامل نتيجة لهذه الهرمونات . وهى (أى الهرمونات) ليست ذات تأثير على الجنين والرحم فحسب ، بل تأثيرها يشمل الجسم كليةً .

كما أن الغدة الدرقية ، يزداد احتياجها إلى اليود ، وتنتابها حالة من التورم . هذا بالإضافة إلى أن أغلب الحوامل تصاب ، ولاسيما فى نهايات الحمل ، بتورم بسيط فى القدمين .

الجهاز التنفسى :

فى أثناء الحمل يأخذ الرحم فى ملء تجويف البطن ، والضغط على الحجاب الحاجز ، مما يسبب إعاقة حركة الحجاب الحاجز فى التنفس ، التى تؤثر بدورها على حركة الرئتين . وينتج عن كل هذا نهج وضيق فى التنفس لدى الحامل .

الجهاز الهضمى :

ما إن يبدأ الحمل حتى تبدأ معه اضطرابات الجهاز الهضمى . وكثيرات هنّ تلك الحوامل اللاتى يصبن بسوء الهضم ، والغثيان ، والقىء ، والحرقان ،

والإمساك ؛ ذلك فضلاً عن قلة الشهية تجاه بعض الأطعمة ، وازديادها تجاه البعض الآخر .. وحالة ازدياد الشهية هذه تجاه بعض الأطعمة هى ما يسمى بـ « الوحم » . مع ملاحظة أن هذه التغيرات والاضطرابات تتفاوت من وقت لآخر ، ومن حالة إلى أخرى .

هذه كانت بعض التغيرات، التى تنتاب الحوامل كلهن أو بعضهن، ذكرتها على سبيل المثال لا الحصر ؛ وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم آياته : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ؛ حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ﴾ .. ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ؛ حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ﴾ .**

* * *

ليس الذكر كالأنثى

« الحيض »

﴿ ويسألونك عن المحيض ؟ قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إنّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ..

مما لا ريب فيه أن الحيض يمثل أحد الفواصل الهامة والجذرية بين الذكر والأنثى .. ومن هذا المنطلق كان هذا المبحث .

والحيض عبارة عن إفراز دورى لدمٍ ممزوج بالمخاط ، وخلايا بالية تساقطت من الغشاء المخاطى المبطن للرحم .

وتحدث هذه الدورة فى المتوسط كل أربعة أسابيع بين سن البلوغ وسن الإقلاع .. إقلاع الرحم عن الإفراز ، أو « سن اليأس » كما يقال . وتختلف هذه الدورة من امرأة إلى أخرى ، بل تختلف فى نفس المرأة من وقت إلى آخر ، بحد أدنى ٢١ يوماً وبحد أقصى ٤٠ يوماً .

وسبب حدوث الحيض عند المرأة البالغة هو بعض التغيرات الدورية التى تطرأ على المبيض والرحم تحت تأثير هرمونات الغدة النخامية ، أو الغدة الرئيسية المنبثقة من الدماغ .

وهرمونات هذه الغدة التى تؤثر فى الحيض اثنان :

الهرمون الأول : يؤدى إلى نضج حويصلة من حويصلات المبيض ، المسماة بحويصلات جراف ، تحتوى على بويضة الأنثى ، وتفرز هى والخلايا المجاورة فى المبيض هرمون المبيض المعروف بالاستراديول . ومتى انفجرت الحويصلة تقذف السائل الذى بها إلى تجويف البطن كما تقذف البويضة إلى بوق الرحم ، حيث تستقبل الحيوان المنوى الذى يلقحها فى الأحوال التى يقدر لها الحمل .

أما الهرمون الثانى : فيبدأ عمله بعد انفجار الحويصلة ، التى تتحول خلاياها إلى غدة تسمى بالجسم الأصفر ، وتبدأ بدورها فى إفراز هرمون من نوع آخر يسمى بالبروجسترون ، يشترك مع الاستراديول فى إحداث تغيرات هامة فى الغشاء المبطن للرحم تجعله صالحاً لقبول البويضة الملقحة وانغراسها فيه ، فتزداد أوعية الرحم الدموية ويصبح غشاؤه حمراوياً منتفخاً ويكبر حجم الغدد فتفرز عصارة غذائية تكون بمثابة الحليب الغذائى للبويضة . حتى إذا قيض لهذه الأخيرة الإخصاب تكون قد وجدت سريراً ناعماً ومأكلاً مغذياً فتعشش فيه . وإذا لم يتم الإخصاب تموت البويضة ويتلاشى السرير المعدّ ، فيبصق على الأثر غشاءُ الرحمِ دماً وعصارة غذائية يمتزجان مع البويضة الهالكة ويخرج الجميع من الفرج ، ويعرف هذا السيلان بـ « الحيض » .

ويستمر الحيض العادى أياماً ثلاثة قد تصل إلى خمسة . وهنا يتسع مجال الاختلاف بين امرأة وأخرى ، وبين وقت وآخر بالنسبة للمرأة الواحدة . ويتوقف طول مدة الحيض على المرأة نفسها إلى حد ما .

ومقدار الدم المفقود لا يزيد فى الواقع عن خمسين جراماً كل شهر ، وفى الغالب لا يتجاوز ثلاثين جراماً ، ويتراوح مقدار الخسارة اليومية بين ١٢ و ٢٠ جراماً .

وللحيض آثار واسعة النطاق على المرأة الحائض . حيث يبدو تضخم الأعضاء الجنسية ، ويأخذ غشاء الفرج فى الاحمرار ، ويمتد الشفران الكبيران (الخارجيان) وينثنيان إلى الخلف (مقلوبين) كما يحدث فى بعض أحوال التهيج الحسى ، ويزرق المهبل قليلاً ، وتشعر المرأة بارتخاء الرحم وتضخمه قليلاً ، وتغدو الأعضاء الجنسية الخارجية والداخلية أرهف حساً . ويتضخم ما يتصل بالرحم ، وكذلك تتضخم العضلات والأنسجة الضامة المجاورة ؛ مما يجعل المرأة تشعر بالثقل وتضخم أسفل بطنها ، كما تشعر بضغط على الأمعاء والمثانة وآلام تشبه الجذب والشد فى الفخذين العلويين .

وكل هذه الأعراض عادية ، يجب أن تتوقعها كل امرأة . ويصح هذا القول

عن الآلام الخفيفة التى تصاحب انقباضات الرحم . وهى عادة تصاحب بدء الدورة الشهرية ، وتنقص حين يغزر تدفق الحيض وتخرج قطع صغيرة متجمدة من الدم والمخاط من فتحة الرحم الداخلية .

وآلام الحيض تتفاوت كثيراً فى شدتها من امرأة إلى أخرى ، وكذلك تتفاوت باختلاف فصول حياة المرأة الواحدة ؛ فقد تكون الآلام خفيفة لا تكاد المرأة تحس بها ، وقد تصل إلى درجة خطيرة مرضية .

وهذه الأعراض مهما كانت عادية بدنياً ، إلا أنها فى مجموعها تسلب قدرة المرأة وحيويتها ونضارتها . ولكن رغم ذلك لا ينتاب بعض النساء أى شعور بالضيق بهذه الفترات ، بل يشعرن أنها خالية من أى أعراض سيئة ؛ حتى إنهن لا يدركن قدوم فترة الحيض إلا حين يأخذ الدم فى الخروج .

والدورة الشهرية غالباً ما يصاحبها بعض الآلام ، مثل : الشعور بالتعب والضيق ، ويتمدد الكبد ويتضخم ، ويزداد تدفق اللعاب ، ويبدو الصداع غالباً عند بعض النسوة اللائى اعتدن عليه فى تلك الفترات ، وتضطرب شهية الأكل ، ويضطرب الهضم ، وغالباً ما يحدث الغثيان ، والميل إلى القىء ، ويزداد نشاط الأمعاء الغليظة بدرجة كبيرة تدنو من الإسهال ، وتزداد الريح فى الأمعاء ، وتنتهى عادة كل دورة شهرية بالإمساك . كما أن الدورة الدموية تنتابها بعض التوترات ؛ فغالباً ما يصبح النبض غير منتظم ، وتتورم الأوردة الدموية ، وتتوتر ضربات القلب .

وتحتقن الأغشية الأنفية ، وتحدث آلام مفصلية ، وتتضخم الغدة الدرقية والحبال الصوتية بشكل ملحوظ ، ويصيب الجزء الخلفى من الحنجرة تمدد وارتخاء فى الغدد والعروق الدموية ؛ مما يترتب عليه أن يفقد الجهاز الصوتى قدرته .

وتلتهب العين قليلاً ، وتغدو وظائفها متوترة ؛ فيضيق مجال الرؤية ضيقاً ملحوظاً ، وتصبح القدرة على تمييز الألوان أقل . كما أن أنسجة الجسم العامة تتضخم وتحتقن أو تنبسط وترتخى .

تلكم كانت الأعراض التى تصاحب الدورة الشهرية ، وهى لا تجتمع كلها فى امرأة واحدة ، بل هى موزعة بين بنات حواء ، يظهر جزء منها فى واحدة ، وجزء آخر فى ثانية ، وجزء ثالث فى ثالثة .. وهكذا . وكم يسعد المرء حقاً أن يقرر ، بناء على التقارير العلمية ، أن بعض بنات حواء لا يتعرضن لمثل هذه الأعراض والمنغصات .

ولكن رغم كل ذلك يجب علينا أن لا ننسى ما ذهب إليه البحاثة العصرى الدقيق « اسكنر » من أن الحيض وسيلة فعالة لتنظيف الدم وتخليصه من السموم .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **ويسألونك عن المحيض ؟ قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ ..

* * *

ليس الذكر كالأنثى

فى « الخلايا »

قد يظن البعضُ ، بعد أن قطعنا هذا الشوط فى إثبات الفروق والاختلافات بين الذكر والأنثى ، أن هذه الفروق والاختلافات تأتى فقط من الشكل الخاص للأعضاء الجنسية والحوض ، ومن وجود الرحم والحمل والحيض وخلافه .

ولذا نسارع بالقول بأن هذه الاختلافات والتباينات لا تنبع من هذه المنطلقات فحسب ، بل إنها ذات طبيعة أكثر عمقاً من ذلك ؛ إذ أنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة تفرزها الغدد المختلفة . والحقيقة الواضحة التى توصل إليها العلماء المختصون أن الأنثى تختلف اختلافاً كبيراً عن الذكر فى كل خلية من خلايا جسمها ، وفى كل عضو من أعضائها ، وفوق كل شيء فى جهازها العصبى .

إن ملايين الخلايا توضح لنا تلك الحقيقة الفاصلة بين الذكر والأنثى .. خلايا الدم .. خلايا العظم .. خلايا الجلد .. خلايا الشعر .. خلايا المخ .. كل خلية من خلايا الجسم .. كل ذرة من ذرات تكوينه .. كل هرمون من هرموناته .. كل الحقائق الجوهرية تنبئنا أن « ليس الذكر كالأنثى » ..

والخلية للكائن الحى بمثابة حجر الزاوية ، وهى بالنسبة لأنسجة الجسم كالحجارة بالنسبة للبناء ، وحجمها يتناهى فى الصغر ، ويتجاوز عددها فى جسم الإنسان ثلاثين مليون خلية ، وتبلغ من التنوع والاختلاف مبلغاً عظيماً .

ويخبرنا العلم الحديث بأن فى نواة الخلية يتجمع ٢٣ زوجاً من الجسيمات الملونة أو الصبغيات ، وهى تعرف بالكروموسومات . منها ٢٢ زوجاً مسؤولة عن بنيان الجسم وصفاته . أما الزوج الباقى فهو المسؤول عن تعيين الجنس : ذكراً أم أنثى . ويعرف بالزوج الجنسى أو كروموسومتى الجنس . وهذا الزوج يختلف شقاه فى الخلية الذكرية، وليكن كروموسوم (ص) وكروموسوم (س) ، أما فى الأنثى فيتشابه شقاه ، وليكن كروموسوم (س) ، وكروموسوم (س) كذلك .

وفى عملية الإخصاب ، إذا اتحد كروموسوم (ص) من الخلية الذكرية بكروموسوم (س) من الخلية الأنثوية ، كان المولود ذكراً . وأما إذا اتحد كروموسوم (س) من الخلية الذكرية بكروموسوم (س) من الخلية الأنثوية ، كان المولود أنثى .

وتعد الكروموسومات أهم ما فى نواة الخلية ؛ لأنها تحمل كل العوامل الوراثية ، والصفات الجثمانية ، والعقلية ، والفكرية ، والنفسية ، والخلقية ؛ التى تستمدها من كروموسومات الوالدين متحدة معاً ، وذلك وفق قانون الوراثة .

المنى والبويضة :

بطبيعة الحال ، تختلف الخلايا الجنسية فى الذكر والأنثى ؛ وبهذا الاختلاف يتم اتحادهما . والخلايا الجنسية التى يقذفها الذكر تدعى « خلية المنى » ، أما خلية الأنثى فتدعى « البويضة » .

وبادىء ذى بدء ، توجد فروق هائلة بين الحيوان المنوى والبويضة ؛ فحيث نجد الحيوان المنوى صغير الحجم ، يشبه القذيفة الصاروخية ، ذا رأس مصفح مدبب وذيل طويل يساعده على السباحة فى بحر المنى ، ويتصف بسرعة الحركة وقوة الشكيمة وشدة البأس ، وينطلق عبر المفاوز والمخاطر غير هياب ولا وجل حتى يصل إلى مقصده أو يموت . فحيث نجد الحيوان المنوى متصفاً بتلك الصفات نجد البويضة عكس ذلك ، فهى كالقمر ليلة البدر ، وعليها هالة مشعة تسمى التاج المشع ، وهى لا تسير إلا بدلال ولا تمشى إلا باختيال — تدفعها الأهداب الرقيقة فى قناة الرحم دفعاً رقيقاً ، وهناك تقف فى الثلث الأخير من القناة تنتظر وصول المحبوب ؛ فإذا ما وصل هشت له وبشت وسمحت له بالولوج .

ومن الفروق الهامة بين البويضة والحيوان المنوى .. أن البويضة خلية كبيرة ، يبلغ قطرها ٢٠٠ ميكرون ؛ بينما الحيوان المنوى لا يزيد عن خمسة ميكرونات . ورغم ذلك فإن الحيوان المنوى يساهم بنصف مكونات الجنين مثلما تساهم

البويضة . ولعل سبب كبر حجم البويضة عن الحيوان المنوى ، هو كون البويضة مسؤولة عن تغذية النطفة الأمشاج ، المكونة من كروموسومات الحيوان المنوى (الأب) وكروموسومات البويضة (الأم) ، وهى مسؤولة عن تغذيتها حتى تعلق وتتشبث بجدار الرحم .

وهكذا يتضح لنا منذ البداية الاختلاف النموذجى الواضح بين الحيوان المنوى وبين البويضة ، كما يتضح أن السمات التى تمتاز بها العلاقة بين خلية المنى وبين البويضة ، هى نفسها سمات العلاقة بين الرجل والمرأة .

وإذا أردنا مزيداً من التوضيح ؛ فإن خلية المنى دائمة الحركة كأى مخلوق من المخلوقات وحيدة الخلية ذات السوط . وإذا كان من المعلوم منذ أمد أن البويضة تجذب الخلية المنوية إلى داخلها بالجاذبية الكيماوية ، فإن العلم الحديث قد أوضح أن البويضة لا تجذب خلية المنى جذباً أفلاطونياً فحسب ، بل إنها تندفع إليها لتستقبلها وهى قادمة . فالبويضة ليست عضواً سلبياً تماماً ، ولو أنها ليست لها قدرة بذاتها على الحركة مطلقاً . والقدرة على الحركة تأتيها من وساطة تتكفل بتوصيلها من مكان خروجها من المبيض إلى الرحم أو المهبل ؛ فيتعاون البريتون والقناة الرحمية بما تملك من هيادب بطرفها الوحشى ، وعضلات بجدرانها ، وأهداب خلاياها المبطنة لغشائها المخاطى ؛ لتوصيل البويضة إلى تجويف الرحم .

وفى الحقيقة أن البويضة مخلوق حى ينبض بالدوافع والمطالب والمشاعر . وحين يحدث التلقيح ، تصيب البويضة ذبذبة موجات قوية من الانقباض والانكماش . ويحدث للبروتوبلازم تغير عجيب ؛ فالبروتوبلازم مفعم بحبات صغيرة من المُحّ الأصفر ، وهو خامل كسول ، ولكنه يتحرك وينشط بعنف بمجرد حدوث الإخصاب . وخلايا المنى المتقدمة وكذلك النواة الناشئة عن اتحاد نواتى الزواج ، محاطة جميعاً بهالة من النور . وأخيراً يصبح البروتوبلازم كله إشعاعاً كبيراً واحداً – حسب تعبير هرنجة ولور .

وإن كان من الخطأ تماماً أن نفاضل بين صفة السكون النسبى فى الأنثى وبين طبيعة الذكر النشيطة ، فإن من الخطأ أيضاً عدم الاعتراف بوجود الاختلاف

النوعى بين عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة . وذلك لأن البويضة ولو أنها لا تستطيع الحركة بنفسها مثل خلية المنى ، إلا أن دورها لا يقل عن دور خلية المنى . ورغم أن دورها لا يقل عن دور خلية المنى ، إلا أن الفروق والاختلافات تظل موجودة بين الاثنين ، حتى يستطيعا معاً القيام بتأدية الواجبات المقسومة بينهما .

ومن الممكن الإفصاح عن هذا الاختلاف بأسلوب أفضل ، إذا استُخْدِمَت كلمتان من كلمات الطبيعة ، هما : الطاقة الكامنة ، والطاقة الحركية . فإذا اعتُبِرَ نشاط الذكر نشاطاً حركياً أو قوة دافعة ، واعتُبِرَت الأنثى طاقة كامنة ومرنة ، وقدرة على التكوين والتشكل ، ونشاطاً داخلياً باطناً . إذا كان ذلك كذلك ، فلا شك أن هذا الاعتبار يكون قد أصاب لُبَّ الحقيقة فى تعريف السمات الجوهرية للذكر والأنثى .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
فى « الهرمونات »

أصبح من المعلوم لدينا الآن ، أن الذكر يختلف عن الأنثى : حجماً ، وتكويناً ، ووظائف عضوية .. وأن هذا الاختلاف يبلغ من العمق مبلغاً ، يجعله يصل إلى حد التباين فى الخلايا ، التى تعد وحدة بناء الكائن الحى .

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا الآن وبإلحاح شديد :

فيمَ يكمن مفتاح هذه الاختلافات ؟

يبدو أن مفتاح هذه الاختلافات يكمن فى الهرمونات ؛ حيث إن الدلائل العلمية الحديثة تشير إلى أن الإنسان عبارة عن معادلة هرمونية ؛ ذلك أن الهرمونات تتحكم فى جميع وجوه النشاط الجسمانى . فمن ناحية الجنس والحمل والولادة — دور الهرمونات معروف وبارز . ومن ناحية الخوف ، والشجاعة ، واتخاذ القرارات ، والسلوك الشخصى عامة — دورها أساسى . السمات الشخصية .. النرفزة ، العنف ، الهدوء ، الاتجاهات العدوانية — كلها جوانب لا يمكن إنكار دور الهرمونات فيها . الهرمونات لها دور فى الطول والقصر ، ولها دور فى الصحة والمرض .. مثلاً المصابون بمرض السكر يتحكم فيهم هرمون الأنسولين . باختصار الجسم مجموعة من النشاط الهرمونى . وطالما للهرمونات هذا التأثير البالغ ، فلابد وأن تكون ذات تأثير فى وجود الفروق بين الجنسين ، بل هى تقريباً مفتاح هذه الفروق .

والعلماء يشيرون إلى أن تأثير الهرمونات لا يقتصر على إيجاد الفروق فى مجال الخصائص الجنسية فحسب ، بل يتعداه إلى الدماغ ؛ فيضفى عليه خصائص ذات طابع أنثوى أو ذَكَرِىّ . وهؤلاء الباحثون الذين راقبوا هذه الظواهر عن قرب ، أخذوا يضعون تفسيرات بيولوجية لتساؤلات عديدة ، مثل :

لماذا يمتاز تفكير النساء بالحدس[٩] ، بينما يمتاز تفكير الرجال بالمنطق ؟

أو .. لماذا يبدو الصبية أشد خشونة فى لعبهم من الفتيات ؟

ولقد أعادت الأبحاث العلمية الحديثة طرح الجدل التقليدى حول ما إذا كانت الطبيعة البنوية (العوامل الوراثية) أشد تأثيراً فى تحديد سلوك الفرد ، ذكراً كان أم أنثى ، من عوامل التنشئة التربوية (العوامل المكتسبة) .

وأيّاً ماتكن الإثباتات الإيجابية أو السلبية فى هذا المجال، فإن الباحثين فى الفوارق الجنسية ألقوا أضواء جديدة ومثيرة على موضوع تأثير (البيولوجيا) فى السلوك الإنسانى . فقد غدا من الأمور المسلم بها ، مثلاً ، أن الذكور أشد عداء من الإناث فى غالبية الأجناس الحيوانية . ويؤكد علماء البيولوجيا أن هذا يعود إلى تأثير هرمون « التستوسترون » الذى تفرزه خصيتا الجنين الذكر خلال مرحلة حاسمة من نموه .

وهناك أربعة من علماء الفيزيولوجيا ، هم : شارل فينكس ، وروبرت غوى ، وأرنولد جيرال ، ووليم يونغ – أجروا عام ١٩٥٩م دراسة هامة تعتبر إحدى نقاط التحول فى هذا المضمار ؛ إذ حقنوا عدداً من إناث الخنزير الهندى فى طور الحمل كميات كبيرة من هرمون « التستوسترون » ؛ فظهرت لدى المواليد الإناث أعضاء تناسلية ذكرية إلى جانب المبيض. وعندما انتزع هؤلاء العلماء المبيض ، وحقنوا هذه الإناث الشاذة مزيداً من « التستوسترون » ، أخذت تتصرف كالذكور ، حتى إنها أقبلت على مجامعة الإناث ذات التكوين الطبيعى .

ولقد واصل (غوى) تجاربه فى مركز الأبحاث الإقليمى فى جامعة « ويسكونش » مؤكداً تأثير « التستوسترون » على قردة الريص (قرود هندية صغيرة ، قصيرة الذيل ، تجرى عليها التجارب العلمية) . وقد أثبت أن حقن الجنين بهذا الهرمون يضفى تصرفاً جنسياً ذكرياً على المولود الأنثى . بل الأمر لا يقتصر على ذلك ، إذ أظهرت دراسة غوى أن خشونة المولود الذكر ونشاطه يتأثران إلى حدّ كبير بتوقيت حقن الجنين بالتستوسترون .

---

(٩) الحدس : هو الإدراك المباشر لموضوع التفكير دون استخدام للبرهنة والاستدلال ، ولذا فهو أشبه بالرؤية المباشرة والإلهام .

وقد ثبت أن للهرمونات تأثيراً مماثلاً فى السلوك الإنسانى . أثبت ذلك كل من جون مونى من جامعة « جونز هوبكنز » وآنك ارهارت من جامعة « كولومبيا » ؛ حيث أجرى الاثنان دراسة على أطفال عانوا قبل الولادة إفرازاً مفرطاً « للاندروجين » (وهو هرمون منشط للذكورة) ، بسبب نشاط غير طبيعى فى الغدة الكظرية . وقد أسفرت هذه الدراسة عن أن الفتيات اللواتى تعرضن لاختلال جسدى كهذا يظهرن سلوكيات صبيانية : كعدم الإقبال على اللعب بالدمى ، والامتناع عن مصاحبة الجنس الآخر حتى سن متقدمة ...

وقد أصبحت أبحاث « مونى » و« ارهارت » بمثابة مرجع أساسى فى إطار النقاش حول مدى تأثير الهرمونات فى سلوك كل من الجنسين .

وقد أكد بعض العلماء أن السلوك الصبيانى الذى أظهرته تلك الفتيات ، قد نتج من تعرض مفرط للهرمون . وهم يستندون فى ذلك إلى الاختبارات المماثلة التى أجريت على الحيوانات ، والتى أسفرت عن عوارض شبيهة بالتى أظهرتها أبحاث « مونى » و« ارهارت » .

وفى دراسة هامة ، أظهرت « جون راينش » – وهى اختصاصية فى الغدد الصماء بجامعة « راتجرز » – معطيات علمية تؤكد دور الهرمونات الأساسى فى توجيه السلوك الإنسانى . ففى خلال خمس سنوات قامت « راينش » بمراقبة ٢٥ صبياً وفتاة ولدوا لأمهات تناولن مركب البروجستين (هرمون يهيىء الرحم لقبول البويضة الملقحة ويحمى الحامل من الإسقاط) . وقد أخضعت هذه العالمة هؤلاء الأطفال لاختبار نفسى حتى تتبين الدوافع العدائية فى سلوكهم ، كما أخضعت أطفالاً طبيعيين للاختبار نفسه . فكانت النتيجة أن الذكور الذين تعرضوا لمركب « البروجستين » أبدوا ظواهر عداء جسدى يعادل ضعف مظاهر العداء لدى رفاقهم ، وأن ١٢ فتاة بين ١٧ فى العينة قد فقن رفيقاتهن عداء . ومع ذلك ، فإن « راينش » لا تنفى تأثير العوامل البيئية فى السلوك الإنسانى .

وقد وضح حقيقة الأمر إلى حد كبير « روبرت غوى » عندما قال : « يبدو أن الهرمون يؤهل الكائن الحى لدور اجتماعى معين . وهو يسهل له ذلك من غير أن يرغمه عليه » .

وأما العامل الفكرى فى السلوك ، فإن العلماء يؤكدون اليوم أن الهرمونات تؤثر فى تحديد هيكلية الدماغ ؛ حيث إن تكوين دماغ الأنثى يختلف عن تكوين دماغ الذكر لدى كثير من الحيوانات ، والاختلاف ظاهر بوضوح فى منطقة السرير البصرى وما تحته (الهايبوتلاموس) فى الدماغ ، وهى ذات علاقة وثيقة بالوظائف التناسلية . ويتمثل الفارق الأساسى فى أن الخلايا العصبية ، فى ذلك الجزء من الدماغ ، هى أكثر عدداً وأكبر حجماً لدى الذكور مما هى لدى الإناث .

إذن ، أصبح من الأمور المسلم بها ، عند كثير من العلماء ، الذين أجروا دراسات على الحيوانات ، أن الهرمونات تضفى طابعاً جنسياً على الدماغ ؛ إذ تعمل على تغيير بنية الخلايا الدماغية .

ولكن هل ينطبق هذا على الإنسان ؟

إن أكثر ما يمكن قوله فى هذا الصدد ، هو ما استنتجه العلماء بطريقة غير مباشرة ؛ ففى خلال سنوات عديدة من المراقبة الميدانية ، اتضح لهم أن الوظائف الذهنية تختلف بين الرجال والنساء . ولاحظوا أن الرجال يتمتعون بـ « جانبية » أكبر ، بمعنى أن تفكيرهم ينتج من وظائف مستقلة فى النصف الأيمن أو الأيسر من الدماغ ، فى الوقت الذى تختلط فيه وظائف نصفى الدماغ عند النساء .

وهذه الاستنتاجات الموثوق بها ، قد أتت من مراقبة المصابين بتلف فى الدماغ . حيث لاحظ الأطباء أن الرجال المصابين فى النصف الأيسر من الدماغ قد يكونون أكثر تعرضاً لصعوبات النطق من النساء اللواتى تعرضن لإصابة مماثلة . كما أن الإصابة فى النصف الأيمن من الدماغ تعرض الرجال أكثر للعمى أو تحرمهم الإدراك الذهنى – المكانى فيما يتعلق بتقدير المساحات . أما النساء ، فإنهنّ أقل تعرضاً لعطل وظيفى من جراء إصابة الدماغ بتلف معين . ولذا يرجح بعض العلماء أن الوظائف الدماغية لدى النساء موزعة بالتساوى على نصفى الدماغ .

وأريد أن أؤكد فى نهاية هذا المبحث على دور الهرمونات الجنسية فى إيجاد الفروق والاختلافات بين الرجل والمرأة ؛ حيث إن هذه الهرمونات لا تفارق الجسم ، بل تنصب فيه وتختلط بالدم ، فيقوم الدم بنقلها إلى جميع الأعضاء ؛ فتحدث تأثيرات مختلفة على الجسم والنفس فى الإنسان . وقد سبق لنا الإشارة ، فى المبحث الذى تناولنا فيه البلوغ فى الأنثى والذكر ، إلى أن كل التغيرات التى تحدث لهما إبان سن البلوغ تكون ناجمة عن تأثير هذه الهرمونات ؛ فتحول الفتاة إلى امرأة بالغة ناضجة ، وتحول الصبى إلى رجل بالغ ناضج .

ولقد بلغت هذه الهرمونات من التأثير فى التمييز بين الذكر والأنثى ما جعل بعض العلماء يقولون : « لولا مفعول الهرمون الجنسى لوُلدت الكائنات متساوية الجنس »

وقد نص هؤلاء العلماء على أن سمات المرأة ومميزاتها ، التى تجعلها متباينة ومختلفة عن سمات الرجل ومميزاته ؛ نتيجة لتأثير الهرمونات ، تكون كالآتى :

عضلات نحيفة ، جسم ناعم ، وسادات شحمية ، شعر طويل ، حنكان ضيقان ، جبين ضيق (دليل الإحساس والتضحية) ، نهدان عامران ، بطن عال ، حوض واسع ، شعر العانة محصور بشكل مثلث ، ردفان عريضان (أعرض من المنكبين) ، فخذان لينان ملتصقان ، ساقان قصيران .

أما الرجل فيتميز عن المرأة بأنه ذو جسم عضلى ومغطى بالشعر وقليل من الشحم ، جبين عال ، اللحية ، حنكان عريضان ، فم كبير ، حنجرة ضخمة ، كتفان عريضان ، عضلات قوية ، نهدان صغيران ، بطن ضامر ، حوض ضعيف ، شعر العانة منتشر ، ردفان ضيقان (أضيق من المنكبين) ، فخذان عضليان (بينهما فسحة) ، ساقان طويلان ، شعر قصير .

* * *

المراجـع

لم أقصد بهذا الثبت استيفاء جميع المراجع التى تناولت ـــ بوجه أو بآخر ـــ الموضوعات التى جاءت فى هذا القسم من الكتاب أو حصرها . بل قصدت ذكر بعضها ؛ حتى يمكن للقارىء الرجوع إليها إذا أراد مزيداً من التفصيل أو التوثيق :

١ ـــ مبادىء علم التشريح ووظائف الأعضاء :
د. شفيق عبد الملك « دار الفكر العربى » .

٢ ـــ علم وظائف الأعضاء :
د. محمد طلعت « الأنجلو المصرية » .

٣ ـــ جسم الإنسان : أعضاؤه ووظائفها :
إيدث سبرول ـــ ترجمة د. عبد الحافظ حلمى محمد « دار النهضة المصرية » .

٤ ـــ علم تشريح جسم الإنسان :
د. شفيق عبد الملك « المطبعة التجارية الحديثة » .

٥ ـــ تشريح الحوض للذكر والأنثى :
د. شفيق عبد الملك « المطبعة التجارية الحديثة » .

٦ ـــ أمراض النساء :
إعداد : محمد رفعت « دار المعرفة » .

٧ ـــ التشريح الوصفى :
د. محمد فائز المط « مطبعة الجامعة السورية » .

٨ ـــ الهرمونات :
د. محمد خليل صلاح « مطبعة نهضة مصر » .

٩ ــ الإنسان ذلك المجهول :
ألكسيس كاريل . تعريب : شفيق أسعد « مكتبة المعارف » .
١٠ ــ علم النفس الفسيولوجى :
د. أحمد عكاشة « دار المعارف » .
١١ ــ خلق الإنسان بين الطب والقرآن :
د. محمد على البار « الدار السعودية » .
١٢ ــ الحياة الجنسية للمرأة :
مارى بونابرت . ترجمة د. صلاح محيمر ــ عبده ميخائيل . « دار الفكر العربى » .
١٣ ــ العلم والمجتمع : تأثير التكوين الجسمانى على سلوك الإنسان :
مارس/مايو سنة ١٩٧٤م « مركز مطبوعات اليونسكو » .

*   *   *

القسم الثانى

ليس الذكر كالأنثى
فى السمات النفسية والعقلية

* توطئة
* سمات الأنثى النفسية والعقلية
* سمات الذكر النفسية والعقلية

القسم الثاني

أسس الأحكام الشرعية
في المسائل النفسية والعقلية

- مقدمة
- مسائل الأحكام النفسية والعقلية
- تطبيقات الأحكام النفسية والعقلية

توطئة

فى هذا القسم سنتناول بالحديث السمات النفسية والعقلية للجنسين ، متبعين منهج التعميم دون التخصيص ، والإيجاز دون التفصيل ؛ حتى لا نفقد موضوعنا الرئيسى وسط الإسهابات والتفريعات ؛ وحتى لا تختلط علينا الأمور الصغيرة بالكبيرة . فضلاً عن أنه من المستحيل تماماً أن نفحص كل الصفات النفسية والعقلية لنعرف ما إذا كانت من صفات الذكور أم الإناث .

وإذا كنا سننسب ، فى هذا القسم ، لأحد الجنسين صفة ما ، فهذا لا يعنى أننا نجرّد الجنس الآخر منها . إنما نبغى فقط تقرير ما يوجد عند أحدهما أكثر مما يوجد عند الآخر .

ذلك أن الموازنة – التى نحرص عليها فى هذا الكتاب – تجرى على الأعم الأغلب فى جميع الأحوال ، ولا شأن لها بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين ، والذى لابد منه فى كل تعميم .

سمات الأنثى النفسية والعقلية

تشير البحوث العلمية ، بل والملاحظات الفردية ، إلى أن القدرة العاطفية هى السمة الأساسية التى تتسم بها نفس حواء . ذلك أن اتجاهات حواء الفكرية والنفسية ، وسلوكياتها وردود أفعالها ، وميولها ورغباتها ، إنما تنطلق بوجه عام من المنطلق الوجدانى والعاطفى .

ومن ثم لن نتمكن من فهم أبعاد هذا العالم الأنثوى الجذاب ، إذا لم ننظر لهذه السمة الجوهرية النظرة التى تتناسب معها تناسباً طردياً .

وإذا كانت المشاعر العاطفية فى المرأة العادية تمثل الحالة الطبيعية بالنسبة لها ، والذى يندر أن تهجرها ، وإذا هجرتها وجدت فى نفسها مقاومة باطنية تنبع

من أعماقها . إذا كان ذلك كذلك ؛ فإن المشاعر العاطفية لدى الرجل العادى لا تمثل سوى عدول مؤقت عن حالته الطبيعية .

وتتجلى عاطفة حواء ، بصفة خاصة ، عند التجارب المؤثرة ، وفى شغفها الدائم والمستمر بأنواع الممارسات التى تبعث على الإشفاق أو الخوف أو الاشمئزاز . وفى الولوع بنشوة الإثارة والمخاطرة ، حتى لو كان فى هذا ما يبعث لديها شعوراً فيه مزيج من الخوف والرجاء .

فحواء تشعر دائما بحاجتها الملحة للتعبير عن عواطفها الجياشة فى كافة الاتجاهات ، وعلى كل المستويات . وهذه السمة الجوهرية التى تتسم بها ، تنشأ عنها سمات أخرى ذات أهمية بالغة ، بالنسبة لحواء ذاتها ، وبالنسبة للمجال الذى تتواجد فيه .

القدرة على التأثر بالإيحاء :

من السمات التى تتسم بها نفس حواء ، والتى تعد ذات صلة وثيقة بالعاطفة – القدرة على التأثر بالإيحاء . وهذه السمة وإن كان يتسم بها الرجال أيضاً ، إلا أن حواء تتميز بكونها تستقبل المؤثرات الإيحائية وترحب بها أكثر من الرجل .

وأعتقد أن المرء ليس بحاجة إلى تفسير مسهب حتى يظهر أن ترحيب حواء بهذه المؤثرات – يعد من الأمور الهامة بالنسبة لأحاسيسها وعواطفها ، وبالنسبة لتفكيرها وتصرفها ، ولانفعالاتها المختلفة ، تجاه البيئة المحيطة بها .

سرعة الاستجابة للدوافع :

ومن سمات حواء أيضاً « سرعة الاستجابة للدوافع » . والدافع هنا عبارة عن مؤثر قوى يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك يرمى إلى تحقيق غرض محدد . و« سرعة الاستجابة للدوافع » تتمثل فى سرعة إدراكها ، والانفعال بها ، والاستجابة لها ؛ ومن ثم اتخاذ السلوك الذى يؤدى إلى إشباعها .

ونستطيع أن نرى مثالاً واضحاً يكشف الغطاء عن « سرعة الاستجابة النسوية » فى الأسلوب الذى تستسلم به كثير من النساء لشهوة مفاجئة ، تدفعهن إلى شراء شيء ، يشاهدنه فى نوافذ المحال التجارية ، دون أن يحتجن إليه ، ودون أن يكون لديهن فائض من المال ، بل قد يكون بيتها فى حاجة ملحة للمبلغ الذى دفع فى هذا الشيء .

سرعة التأثر العاطفى :

وهناك سمة قريبة الشبه بسرعة الاستجابة للدوافع ، وهى سرعة التأثر العاطفى ، والخضوع الواضح للمشاعر العاطفية . وحين يترك زمام الأمور لسرعة الاستجابة للدوافع ولسرعة التأثر العاطفى ، حينئذ تكون السيطرة والغلبة للمشاعر العاطفية ؛ وبالتالى نستطيع أن نلاحظ صفات نسوية متعددة ، مثل : تقلب المزاج ، تغير الطبع ، الرغبة فى التنويع .

وإذا كان تقلب المزاج من الأمور الشائعة لدى حواء ، فينبغى أن نشير إلى أن هذا الأمر ليس محصلة لطبيعتها العاطفية وحدها ، بل يرجع أيضاً إلى التغيرات المتلاحقة التى تحدث فى وظائف جسمها .

الرغبة فى التنويع :

أما عن الرغبة فى « التنويع » فهى عبارة عن رغبة دائمة متجددة فى رؤية وسماع وتجربة أشياء جديدة مختلفة . وهذه الصفة ترجع فى أساسها إلى الطبيعة العاطفية التى تتلهف دائما إلى مؤثرات جديدة ، خاصة تلك التى تتسم بكونها قوية وعنيفة .

ومعظم بنات حواء يقمن بحصر هذه الرغبة داخل دائرة معقولة بدافع من المنطق والإحساس بالواجب . ولكن نظراً لطبيعة المتغيرات الحضارية التى يتسم بها طابع هذا العصر ، فإن النساء اللاتى يكرهن فكرة الواجب يتزايدن باطراد ، لدرجة أن بعضهن لا يستطعن إخفاء استيائهن واشمئزازهن عندما تثار مثل هذه الفكرة أمامهن .

الحساسية والمرونة :

ننتقل الآن إلى سمة أخرى من سمات حواء ، وهى الحساسية والمرونة . وهنا نذكر القارىء الكريم بما كتبناه عن حساسية المرأة البدنية وامتيازها أو انفرادها بذلك عن الرجل . وأرى من الأفضل أن يعاود الأخ القارىء قراءة ذلك المبحث ، ثم يتساءل معنا بعد قراءته :

هل لتلك الأمور ما يماثلها ويوازيها عقلياً ونفسياً فى الذات الأنثوية ؟

فى الواقع إن الإجابة على هذا السؤال ، قد تكون بديهية إلى حد كبير ؛ نظراً للترابط القوى الملموس بين التكوين الجسمى والوظيفى وبين التكوين النفسى والعقلى ، أو بأسلوب آخر : هناك حلقة دائمة الاتصال بين الجسم والنفس فى داخل الكيان الإنسانى ؛ فيؤثر الجسم فى النفس ، وتؤثر النفس فى الجسم دواليك .

وطالما الأمر كذلك ؛ فلابد وأن يكون للحساسية والمرونة الجسميتين ما يماثلهما ويوازيهما فى نفس وعقل المرأة . فالمرأة إذا كانت تنتابها حالات من التيقظ والنشاط ، والإحساس بالقوة والحيوية ، والرغبة فى العمل ؛ فهناك فترات تحدث فيها حالات أخرى مغايرة ، يهبط فيها العقل والشعور إلى مستويات دون المستوى الطبيعى .

وتحصل الحالات الأولى فى أثناء ارتفاع الموجة وعند بلوغها الذروة ، وتحصل الحالات الأخرى المغايرة حين تبدأ الموجة فى الهبوط قبيل الحيض مباشرة ، وفى أثناء النزف نفسه ، وحين تصل الموجة إلى أدنى درجة .

فتظهر على كثير من بنات حواء مظاهر النشاط والصحة ، والمرح والابتهاج ؛ ولكن تنتابهن مشاعر الضيق والانقباض فى أثناء فترة الهبوط . وأمور مثل : العصبية ، وعدم الانسجام ، وسرعة التهيج ، والميل إلى المشاجرة لأتفه سبب ، والحساسية المرهفة ، وتغيير الهدف فجأة ، وكثرة تقلب المزاج ، والتشبث بفكرة مفاجئة غير معقولة .. مثل هذه الأمور تعتبر كلها من مظاهر التغيرات

التى تمر بها كثير من النساء ، مثل تغيرات الحيض ، مع أن هؤلاء النسوة يكن طبيعيات فى غير هذه الفترات .

ويرى باحثون متعددون أن القدرة العاطفية التى تمتاز بها حواء ترجع أساساً إلى صفة « الحساسية والمرونة » ، وما أكثر الأدلة التى يستندون عليها فى إثبات أن القدرة العاطفية ، والحساسية ، ومرونة التوازن العقلى ، متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً جداً . ومن ثم يصلون إلى أن كل السمات السابقة تتداخل بعضها فى بعض مثل تداخل دوائر المياه ، أو تتشابك مثل تشابك أغصان الشجر الكثيف المتدانى .

وإبان فترة المراهقة تدرك المرأة حساسيتها ومرونتها اللتين تميزان جسمها وعقلها . وإذا كان هذا الشعور يبدو غامضاً أول الأمر ، فإنه يتضح بالتدريج ، ويغدو ملموساً أكثر وأكثر ، وإن لم تعترف المرأة بذلك . ويسبب هذا الإدراك لها شعوراً بالنقص أو بالضعف . وإذا لم يكن هذا الشعور لديها نتيجة تجارب الطفولة ، فيبدو أنه يتصل بحيضها الأول ، وخاصة الفترة اللاحقة له . وتلك الفترة المتجددة المتكررة تسبب لها غالباً شعوراً بالضيق ونقص الكفاءة ؛ فهى تعتبر حساسيتها ومرونتها نقصاً أو ضعفاً . وبطبيعة الحال يتفاوت هذا الشعور من امرأة إلى أخرى بشكل ملحوظ . وقد تحاول المرأة مقاومة مثل هذا الشعور ، أو القضاء عليه ، بما لها من مميزات أنثوية تجعلها محور اهتمام الرجل وعنايته .

التماس حواء لعون الرجل وحمايته :

وشعور المرأة بأنها رقيقة ، مرنة ، شديدة الحساسية ، يؤثر فيها تأثيراً كبيراً ، لدرجة أنه يوقظ فيها الرغبة فى التماس عون الرجل وحمايته .

ويمكن إجمال عوامل التماس المرأة لعون الرجل وحمايته ، بالإضافة إلى العامل سالف الذكر ، فى أربعة عوامل .. هى :

العامل الأول : قدرة الرجل العاطفية أقل من نظيرتها عند المرأة ؛ ومن ثم فهو أقدر منها على الصمود ومقاومة المشاعر المؤقتة ..

العامل الثانى : قدرة الرجل على التفكير والسلوك بعيدة عن دائرة تأثير كل من المرونة والحساسية الجسمية .

العامل الثالث : وظيفة العقل الأساسية فى الرجل لا تتوقف ، على عكس المرأة . بالإضافة إلى أن وظيفة العقل الثانوية التى تسيطر على المرأة تجعلها تشتهى الاتفاق والمصالحة والمهادنة ، وذلك وفقاً لفطرتها .

العامل الرابع : طبيعة الأشياء جعلت الرجل هو الذى يحمى المرأة طوال فترات التاريخ البشرى ، وهو الذى يهتم بها ، ويقوم على أمرها هى وأبنائها .

فالمرأة تعتمد على الرجل فى صيانتها ، وحمايتها ، وإعاشتها ؛ نتيجة سماتها الحسية المميزة . وهى تلتمس منه هذه الحماية وتتطلبها ، وهى تدرى أو لا تدرى . وهى ترغب فى الاعتماد عليه ؛ لأن شعورها الملهم الراقى ينبئها بأن أسباب هذا الاعتماد إنما تقوم على أسس طبيعية فطرية .

الرغبة فى الخضوع والاستسلام :

ورغبة المرأة فى الاعتماد على الرجل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرغبة فى الخضوع والاستسلام . ولعل أقرب دليل على ذلك هو أن الملامسة الحسية تتضمن عدداً من المؤثرات القوية التى تستدعى خضوع المرأة للرجل و استسلامها له ، لدرجة أن رغبة المرأة فى الملامسة ترتبط لديها بالميل إلى الخضوع والاستسلام .

ورغبة المرأة فى الاستسلام والخضوع تنشأ من رغبتها فى القوة والسيطرة ، ولكنها تشعر بهذه الرغبة مقلوبة سلبية . وإذا كانت الرغبة فى « الخضوع والاستسلام » تناقض الرغبة فى « القوة والسيطرة » ؛ إلا أنهما تتمشيان معاً فى إحساس المرأة ، فتؤلف بينهما اضطراراً من حيث تريد أو لا تريد . لأن التناقض سمة لابد منها فى تكوين الذات الأنثوية فى ألزم لوازمها .

فهى تشتهى الخضوع والاستسلام بكل روحها وكيانها ، ولكنها تتطلع إلى القوة والسيطرة . ولا تلبث إن عاجلاً أو آجلاً (وعادة أول الأمر) فى الصراع لكسب القوة والسيطرة . ولكنها إذا انتصرت فقدت الشىء الذى تحتاج إليه أشد

الاحتياج ، وهو حماية الرجل وكفالته ورعايته . وفوق ذلك تكون قد فقدت أخصب مصدر لتحقيق السعادة لديها . ذلك أن أسعد ساعات المرأة عامة هى الساعة التى تظفر فيها بالرجل الذى تستكين إلى بأسه وتشعر بغلبته . ولا سعادة لها مطلقاً مع الرجل الضعيف لأنه- أولاً وقبل كل شيء- رجل غير موفور الرجولة ؛ ومن ثم لن يستطيع أن يحقق لها غرض الأنوثة الأقوى ، ولا غرض للأنوثة أقوى من الظفر بالأقوياء من الرجال .

وإذا كان من المعلوم لدينا جميعاً أن هناك ألعاباً يخسر فيها الفائز ، فالأمر هنا لا يختلف عن هذا كثيراً ؛ إذ أن المرأة التى تكسب فى مبارة الحصول على القوة والغلبة ، وتفوز بها دون زوجها ، هى فى الواقع خاسرة . ولن يستطيع الزوجان أن يربحا معاً إلا إذا تمكن الرجل وحده من السيطرة . أما إذا كسبت المرأة السيطرة ، فكلاهما سيغلو خسران . ولكن خسارة المرأة ستكون أكبر ؛ لأنها فقدت كل شيء بانتصارها ! ولن تجد شيئاً ما يعوضها عن تلك الخسارة التى أدى إليها ذلك النصر المشئوم ! وستغدو مثل هذه المرأة شاعرةً بكل المشاعر البائسة نتيجة فقدانها للملاذ والسند والدعامة التى كانت تنشدها فى شريكها ، وسينبعث فى نيتها سوء الظن بذلك الرجل الذى سمح لنفسه أن ينهزم أمامها ، وسوف تحمل فى نفسها احتقاراً شديداً له !

ذلك أن المرأة تستاء أشد الاستياء من الرجل الضعيف عديم الفاعلية ، بقدر ما تعجب أشد الإعجاب بالرجل صاحب التأثير ، والقادر على اتخاذ القرار المناسب ، وعلى إبداء معالم القوة على تباين أشكالها وتنوعها من مجتمع إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى .

سمة « التقبلية » :

ومن السمات البارزة لدى المرأة أنها ذات طبيعة « تقبلية » ؛ فإذا كانت من الناحية الجنسية تمثل القطب السالب الذى يستقبل الحيوان المنوى ، فهى من الناحية الوجدانية تميل إلى أن تكون الموضوع المعشوق الذى يحظى بالإعجاب .

وهذا ما يفسر لنا ميلها الفطرى إلى التزين ، وإلى أن تبدو فى أجمل صورة وأبهى منظر ؛ حتى تصير موضوعاً قابلاً لأن يُعشَق ويُحَب .

وسمة « التقبلية » التى تتسم بها المرأة موجودة أيضاً فى تكوينها العقلى ؛ حيث إنها تميل إلى تقبل المعرفة ، وتأبى طبيعتها عليها أن تسلك طريقاً جديداً إيجابياً بالمعنى الكامل . والدليل على ذلك أن المستقرىء لتاريخ الفلسفة والعلم لا يجد نساء فيلسوفات أو عالمات ، وإذا وُجِدَت من يمكن أن تلقب بالفيلسوفة أو العالمة فهذا من قبيل الاستثناء الذى لابد منه . ومن المقرر أن الموازنة تجرى على الأغلب الأعم ، وعلى القاعدة التى تشيع وتعمم فى جميع الأحوال ، ولا عبرة بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين إلا من حيث دلالته على القاعدة التى يخالفها . وإذا كان البعض سيسارع الآن بذكر اسم « مارى كورى » لكى يدلل على عكس دعوانا ؛ فإن مثل هذا الاستدلال لهو أكبر دليل على ما نذهب إليه ؛ إذ أن عمل هذه السيدة لم يكن من قبيل الإبداع والاختراع ، بل كان من قبيل الكشف والتنقيب . ومهما يكن من أمر ؛ فعلينا أن نتذكر أننا هنا لا نحاول المفاضلة بين الرجل والمرأة بأى وجه من الوجوه ، إنما غرضنا الأعلى هو الكشف عن سمة أنثوية أصيلة هى « سمة التقبلية » فى الناحية العقلية . والقاعدة فى هذا هى أن المرأة تتلقى المعلومات ، ويمكن أن تعقد المقارنات ، وتمتاز بذاكرة قوية ، والذاكرة سمة من سمات « التقبل » . ولعل المرء لا يخطىء إذا قرر أن النساء بصفة عامة أقوى ذاكرة من الرجال ، وأن الرجال أقدر منهن على التفلسف والاختراع والإبداع :

سمة الحدْس والإلهام :

وإذا كان الرجال يستخدمون المنطق العقلى كأداة للمعرفة ، فإن النساء بطبيعتهن يستخدمن الحدْس والإلهام . والحدْس عبارة عن معرفة لدنية فطرية يستطيع الإنسان عن طريقها أن يدرك الحقائق بغير الطريق الحسى وبغير إعمال الفكر أو التذرع بالشواهد والدلائل والمقدمات المنطقية . إنه عبارة عن معرفة يستشف بها الإنسان الحقيقة مباشرة دون أى استخدام للبرهنة والاستدلال ، وهو بهذا أشبه بالرؤية المباشرة والإلهام .

وقد أكد علم النفس أنه من السمات الإنسانية الأكيدة التى تساهم فى أعمال المرأة أكثر مما تساهم فى أعمال الرجل . فالمرأة فى أحلامها التى تراها فى منامها تكون أصدق مما يراه الرجل . والمرأة فى يقظتها تكون فى حالة من الشفافية تسمح لها بالمعرفة المباشرة التى لا تعتمد على الحس أو التجارب أو الاستدلالات ؛ مما يجعلها تتمتع بسمة كم هى عظيمة .

ولا شك أن انخراط المرأة فى شواغل الحياة وكدحها ، مما سيؤدى إلى طمس تلك الطبيعة الحدْسية الجميلة ، وسيحرمها من سمة نفسية طالما استعانت بها عبر العصور فى تسيير شئون حياتها وحياة أبنائها وزوجها .

سمة الاحتواء والرعاية :

تظهر سمة الاحتواء عند المرأة فسيولوجياً فى عملية الحمل ، ثم فى احتضان الطفل . كما تظهر نفسياً واجتماعياً فى احتضانها للأسرة والبيت ، وما يموج فيهما من مشكلات واضطرابات . وترتبط هذه السمة الاحتوائية بسمة أخرى ، هى سمة الرعاية الشعورية واللاشعورية ؛ حيث إن المرأة تقوم برعاية كل من فى حوزتها : بدءاً من الجنين فى بطنها ، وانتهاء بزوجها . وإحساسها بواجب رعاية زوجها شبيه – بوجه من الوجوه – بإحساسها بواجب رعاية طفلها ؛ إذ أنها تميل إلى رعايته ، والاهتمام به ، والقيام على شئونه ، وسد مطالبه ، وتلبية رغباته . وإذا ما تصاعد الحب بينها وبين زوجها ، فإن هذا الميل إلى الرعاية يزداد باطراد ، حتى يصل إلى مرحلة لا يكون فيها فرق كبير بين رعاية المرأة لزوجها وبين رعايتها لأبنائها .

الأمومة :

الأمومة هى الوظيفة المحورية التى تتمركز حولها كل حياة الأنثى من مطلع الصبا إلى الشيخوخة . وهى غريزة فطرية ومنبع خصب تستمد منه المرأة كل قواها الدافعة وطاقاتها الإبداعية . وليست الأمومة مجرد حمل تنوء به المرأة ، بل هى أداتها إلى تحقيق تكاملها النفسى واتزانها الوجدانى اللازمين لبلوغ السعادة .

والأمومة أمر تكتنفه المصاعب والمشكلات ، بيد أنها تعبر عن تلك التجربة الخصبة التى تستطيع المرأة من خلالها أن تحقق رسالتها التى تجد فيها لذة كبرى . وفى الوقت الذى تدرك فيه المرأة أنها قد أدت مهمتها تلك على أكمل وجه ، فإنها تدرك تماماً أنها حققت ذاتها أولاً وقبل كل شىء .

ونحن إذ نذهب إلى أن القدرة العاطفية هى السمة الأساسية التى تتميز بها نفس حواء ، فنحن نعنى بذلك القدرة العاطفية التى تعد الوجه الآخر للأمومة . فالأمومة أو العاطفة – ولا فرق – أمر قد خلقت المرأة متطبعة به متجهة إليه .

ومن الأقوال التى تدل دلالة عميقة على أهمية الأمومة بالنسبة للمرأة – قول شاعر بولندى : « إن قلوب النساء كخلايا النحل ، إن لم يملأها شهد المحبة والحنان الأموى – استحالت سريعاً إلى أوكار للأفاعى ! » . بيد أن هذا الشاعر قد فاته شىء هام ، وهو أن الأمومة يستحيل أن تمحى تماماً من كيان المرأة .

وترى « هيلين دويتش » أن « حب الأم » ليس غريزة ، بل هو عاطفة أو حالة وجدانية ؛ فليس « حب الأم » مرتبطاً بالضرورة بالحمل ، بل قد يكون فى استطاعة المرأة أن تبدى « عاطفة الأمومة » نحو طفل قد تبنته ، أو نحو أبناء الزوج الذين أنجبهم من فراش الزوجية الأول . وليس غريباً أن نجد بين النساء من تتجه بحاجتها الطبيعية إلى الأمومة نحو موضوعات أخرى غير أبنائها ؛ فنراها تعطف على أبناء الآخرين ، أو تبدى حنان الأمومة نحو طائفة من البالغين . ومثل هؤلاء النساء قد يحترفن فى العادة أعمالاً تسمح لهن بالحصول على منافذ لإرضاء تلك المشاعر العاطفية المرتبطة بالأمومة . وحينما تتخلى المرأة عن مستقبلها ، فتقلع عن رغبتها فى الزواج وإنجاب النسل ، لكى تعين غيرها من الأمهات ، وتكرس نفسها لخدمة أبنائهن ، مضحية بكل مصالحها ومشاعرها الأنانية – فإنها بذلك تتخذ لنفسها موقف « الأم الحزينة » ، التى تحاول أن تشبع عاطفة الأمومة لديها بطريقة شاذة منحرفة . وهناك حالات أخرى قد تعمد فيها بعض النساء إلى إرضاء حاجتهن إلى الأمومة بطرق زائفة ملتوية نظراً لشعورهن بالخوف من المعاشرات الجنسية . ومثل هذه الحالات الشاذة ما هى إلا أدلة تدلنا على مدى أهمية « الأمومة » فى حياة المرأة ، على الرغم من مزاعم بعض دعاة الحرية

النسوية ! إن الطفلة الصغيرة التى ترعى دميتها وعرائسها الصغيرة ، أو تهز أخاها الأصغر بين يديها وترعاه وتغسل جسمه وتساعده على ارتداء ملابسه - تعبر تعبيراً واضحاً عن غريزة الأمومة ودون تأثر ممن يشرفون على تربيتها . وهى تعبر عن هذه الغريزة الفطرية عندما تلعب لعبة « الأم » ، أو تمارس أى لون من ألوان النشاط التى تقوم بها النساء الناضجات إذا كن محرومات من عاطفة الأمومة . وقد يقال : إن لعب البنت لعبة الأم ، أو تظاهرها بمظاهر المعلمة أو المربية أو الممرضة - ينطوى على رغبة فى القوة والسيطرة . ولكن هذه الرغبة لا تعدو تعبيراً عن رغبة الأم فى القوة والسيطرة على أبنائها ؛ إذ أن غريزة الأمومة هى السمة الجوهرية التى تتسم بها مثل هذه السلوكيات ، التى بها ترضى البنت رغبتها فى رعاية من يحتاجون إلى رعاية وعطف وحنان الأم . وفى مقابل ذلك تحوز وفاءهم وحبهم وإخلاصهم .

المأساة الأنثوية المزعومة :

ويذهب البعض إلى أن سمات المرأة تمثل مأساة بيولوجية وسيكولوجية . ولكن الحقيقة المطابقة للواقع المتعدد الجوانب تنبئنا أن مثل هذا المذهب يتمتع بنصيب كبير من الزيف والاعوجاج ؛ لأن الحقائق الحيوية الخاصة بحياة المرأة لا يمكن بأى حال أن تكوّن مواد المأساة المزعومة ، وليس هناك أسباب أو دوافع كافية تسمح لنا بالنظر إليها نظرة محزونة أو ذات إشفاق . فأساس المأساة المزعومة ليس له وجود واقعى ؛ ومن ثم فالمأساة نفسها لا وجود لها .

وإذا كانت المرأة لديها من المشاغل والمتاعب والأخطار ما يجعلها تشقى بعض الشقاء ، فإن لديها من إمكانيات السعادة وفرص التفوق ما يعادل ذلك ويكافئه . ومن الخطأ تماماً أن ننظر إليها نظرة إشفاق أو عطف أو رثاء ، وخطأ أكبر منه أن نجعلها تعتقد بأنها موضع لمثل هذه النظرات أو ما يشابهها . فقد نشأت سلبيات وأضرار عظيمة نتيجة لإشعار المرأة دوماً بأنها موضع إشفاق أو عطف . ولذا فعلينا أن نراجع أنفسنا كثيراً حتى يمكننا رد الأمور إلى نصابها الصحيح . ويجب أن نتذكر دائماً أن نقص المرأة النسبى يقابله تفوق ملحوظ فى

جوانب أخرى عديدة ؛ فنقص وظائف عقلها الأساسية يقابله تفوق فى وظائفه الثانوية ، ونقصان قدرتها على التفكير المنطقى يقابله عظم قدرتها على التفكير الحدْسى والإلهام ، وضعفها الحسى الناتج عن رقتها ومرونتها وشدة حساسيتها يقابله تفوق وسمو فى مظاهر الأنوثة ومتطلبات الأمومة .

ثم كيف لنا أن ننظر إلى هذه الجوانب على أنها جوانب نقص ؟! إن نظرة من هذا القبيل لهى دليل على قصور واضح فى أساليب التفكير ؛ لأن هذه الجوانب المعنية ، فى نظرى أنا شخصياً ، تمثل أموراً هامة لابد من توافرها حتى تصبح المرأة امرأة ، حتى تصبح امرأة تكمل وتتمم الرجل ؛ حتى تصبح منحنيات المرأة تقابل نتوءات الرجل كأنها مخلوقة على (قدها) لتتداخل معها وتستقر فيها ؛ حتى يصبح كل تجويف فى المرأة يقابله بروز فى الرجل ، وكل تجويف فى الرجل يقابله بروز فى المرأة . ومن التحام القسمين المتقابلين تنشأ « تعشيقة » مترابطة متناسقة ، يتألف منها مخلوق متكامل متمازج .

* * *

سمات الذكر النفسية والعقلية

يكمن شيء من الطموح عادة فى تفكير الرجل وسلوكياته . ولذا فهو يحتاج دائماً إلى تنمية قدراته وإمكانياته التى تحقق له الفوز والانتصار .

وتتجلى سمة « الطموح » عند الرجل فى الرغبة المتزايدة فى القوة ، والسيطرة ، والكمال بوجه عام .

ويزداد انغماس الرجل فى هذا الاتجاه نتيجة لصراع البقاء الذى فرضته عليه الطبيعة ، والصراع هنا ليس من أجل وجود الرجل وحده ، بل من أجل وجود امرأته وأبنائه وعشيرته .

لقد فُرِضَ صراع البقاء على الرجل فرضاً مطرداً منذ قديم الزمن فى كل أرجاء المعمورة . وكلما ازداد انشغاله برعاية وحماية أسرته وعشيرته ازدادت صعوبة هذا الصراع والتحدى . وهذا الأمر ليس مقصوراً على الحضارات السالفة فحسب ، بل هو ينطبق أيضاً على حضارتنا المعاصرة وإن اختلفت طبيعة التحدى والصراع نتيجة للمتغيرات الجديدة التى تمتاز بها حضارتنا .

إذا وضعنا كل هذا فى اعتبارنا لتبين لنا أن على الرجل أن ينفق الشطر الأكبر من حياته من أجل تحسين صفاته الذكرية ، والبلوغ بها مبلغاً يتيسر معه التخفيف من حدة هذا الصراع . وليس هذا لأسباب ذاتية فحسب ، بل لأسباب موضوعية خارجية أيضاً .

وتتباين طبيعة الصراع والتحدى من مجتمع إلى مجتمع ، ومن حضارة إلى أخرى .. ففى المجتمع البدائى يلجأ الرجل إلى قوته الجسدية والعضلية فى مقاومة الأعداء والحيوانات المفترسة ، وفى الصمود أمام قوى الطبيعة وقهرها . وفى مجتمع « الكاوبويز » يلجأ الرجل إلى المسدس وسيلة للتعبير عن الذات ، دفاعاً وعدواناً ؛ وعلى قدر سرعة تناوله للمسدس وإطلاقه تكون بطولته وعظمته . ويوجد المسدسان دائماً على جانبى وسطه ، يتباهى بهما ويسير مختالاً فخوراً ، ويداه

قريبتان منهما ، مستعداً لأن يتناولهما فى مثل لمح البصر ليطلقهما يمنة ويسرة ضد أى عدو أو متحد . وفى مجتمع ثالث توجد مظاهر أخرى مختلفة عن هذا وذاك . وكلما تغير الإنسان وبيئته انقلبت وتعدلت طبيعة التحدى بشكل ظاهر .

وحين يتنافس المثقفون فى حضارتنا المعاصرة على بلوغ مدارج الكمال ، فإنهم يجعلون قوام منافستهم الصفات العقلية أساساً . ويقوم صراع البقاء بينهم بأكمله على أسلحة العقل . ولن يمكن لأحدهم بلوغ القوة الحقيقية أو المحافظة عليها إلا بقوة التفكير والمنطق فحسب . والأدلة على ذلك يستطيع المرء أن يراها فى كل مكان ، ويلاحظها بشكل ملموس واضح كل يوم .

ورغبة الرجل فى بلوغ الكمال ، تدفعه إلى الانتفاع بكل قدراته العقلية ، وإلى تركيز أفكاره فى الهدف المنشود . وهذه الرغبة قد تدفعه إلى الأمام فى الحياة ، وقد تتلف فرص نجاحه إتلافاً شديداً إذا لم يتحكم فيها تحكماً مناسباً .

وهذه الرغبة فى الكمال تؤدى حتماً إلى درجة من الأثرة أو تركيز الاهتمام بالذات . وهذا التركيز يفيده أعظم الفائدة فى صراع البقاء . وإذا لم يستفد الرجل بهذه السمة فى بلوغ هدفه المختار ، فإنه ينحرف عن الطريق السوى . والرجل الحقيقى هو الذى لا يكتفى دائما بالنتائج الذى يصل إليها ، بل يرغب فى تحقيق نتائج أفضل باستمرار .

وهذه السمات الرجولية لا يكتسبها المرء نتيجة لنموه وتطوره فحسب ، بل يمكن ملاحظتها فى الأطفال الذكور قبل أن تؤثر فيهم التربية أى تأثير بعد ؛ ذلك أننا نلاحظ الولد يشتهى أن يمسك مسدساً أو سيفاً ، ويتشوق للقتال ، لقياس قوته بالنسبة لقوة غيره . ويصور له الطموح أن يكون قائداً ، أو ضابطاً ، أو سائق سيارة ، أو طياراً ، أو يتولى منصباً يتيح له القوة والسيطرة على غيره . ويراقب كيف تلعب لعبته ، ويحاول أن يفكها ويتعرف على أسلوب عملها ومكوناتها ؛ لأنه يرغب فى الإنتاج والابتكار .

وإذا كنا فى معرض تناولنا لسمات المرأة النفسية والعقلية ذكرنا أن النساء يمتاز تفكيرهنّ بالحدْس والإلهام ، فإننا نذكر هنا فى مقابل ذلك أن الرجال يتميز

تفكيرهم بالمنطقية والاستدلال ؛ فطريقة التفكير فى حل المسائل ومواجهة المشكلات لدى الرجال تختلف عنها لدى النساء ؛ لأن الرجال يستخدمون خلايا دماغية مختلفة عن خلايا النساء فى عملية التفكير . وتكوين الأنسجة الدماغية لدى الرجال قد يساعدهم فى الوصول إلى إدراك ذهنى - مكانى يفسر تفوقهم الملحوظ فى علم الرياضيات مثلاً . أما الأنسجة الدماغية لدى النساء فتساعدهن على الإدراك اللفظى مما يفسر سهولة تعلمهنّ اللغات .

ويتميز عقل الرجال الممتازين ، بصفة عامة ، بالسمات الآتية :

أولاً : التفكير المنطقى المنظم فى حل المشاكل :

ويحدث إذا صادف المرء مشكلة ما . ويمكن بيان الخطوات المتبعة فى مثل هذا النوع من التفكير فى النقاط الآتية :

١ - الشعور بالمشكلة .

٢ - تحديد المشكلة .

٣ - فرض الفروض التى تصلح كتخمينات محتملة لحل المشكلة .

٤ - اختبار هذه الحلول المحتملة عن طريق القيام بملاحظات أو تجارب .

٥ - التوصل إلى الحلول .

فالعالم فى الكيمياء أو الطبيعة ، مثلاً ، تواجهه مشكلة تفسير ظاهرة معينة ، فيبدأ بتحديد المشكلة التى يريد تفسيرها ، ثم يفترض فروضاً مختلفة لتفسيرها ، ويبدأ فى معمله يجرب كل فرض من هذه الفروض ، وذلك حتى يتوصل إلى تفسير مقبول للظاهرة ، ثم يضع قاعدة أو قانونا يستطيع أن يطبقه على الحالات المماثلة .

ثانياً : التفكير الإبداعى الابتكارى :

لقد تطورت البشرية ، فى جانب كبير منها ، بتقدم الاختراعات التى هى نتاج لتفكير الرجل . ويهمنا إلى جانب معرفة خطوات التفكير أن نعرف كيف يفكر العلماء حين توصلوا إلى اختراعاتهم . وقد توصل علماء النفس إلى معرفة بذلك بدراسة ما ذكره العلماء عن أنفسهم وطريقتهم فى التفكير الابتكارى .

وقد حلل « ولاس » التفكير الابتكارى فى أربع مراحل :

١ – الإعداد .

٢ – الحضانة .

٣ – الإلهام .

٤ – التحقيق .

فالعالم أو المفكر يحصل – فى مرحلة الإعداد – على معلومات ومهارات فى ميدانه . وفى مرحلة الحضانة يتحرر فكره من الأخطاء التى علقت به ، وتتفكك عناصر المشكلة ، مما يؤدى إلى ظهور علاقات جديدة بينها لم تكن واضحة من قبل . ثم فى مرحلة الإلهام يدرك العقل العلاقات الجديدة بين عناصر المشكلة ، فيثب الحل الصحيح إلى الذهن فجأة . ثم فى مرحلة التحقيق ، يحاول العالم بيان صحة الحل الذى وصل إليه بوضعه موضع الاختبار .

ثالثاً : القدرة على التركيز العقلى ومواصلته تجاه هدف محدد :

لاحظ العلماء أن القدرة على التركيز لفترة زمنية طويلة تجاه هدف محدد ، تعد إحدى القدرات الأساسية ، التى يتشكل من خلالها السلوك الإبداعى ؛ ومن ثم فإن هذه السمة وثيقة الارتباط بالسمة المذكورة قبلها فى البند السابق .

ذلك أن العالم المبدع ، يبدو أنه يمتاز بالقدرة على تركيز انتباهه وتفكيره فى مشكلة معينة زمناً طويلاً جداً . وهذا مما يتفق مع ملاحظة « ماير » ومؤداها : أن من بين السمات الهامة التى تمتاز بها عادات العمل عند الأطفال والراشدين النابغين : التركيز على العمل الذى هم بصدده لفترات زمنية طويلة . وكذلك ذكر « فرتهيمر » عن « أينشتين » أنه ظل معنياً بمشكلته العلمية الرئيسية لمدة سبع سنوات متواصلة . ذلك على الرغم من أن المشكلة قد تتغير قليلاً أو كثيراً فى مضمونها ، لكن المبدع يظل مواصلاً لاتجاه معين .

وقد يؤدى الإفراط فى هذه السمات إلى تعطيل وظائف العقل الثانوية ، أى أن اللاشعور يتعطل بسبب الشعور .

والوظائف الثانوية للعقل هامة جداً ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى تحقيق أى عمل عقلى ممتاز . ومع ذلك ، فمن الواضح أن هذه الوظائف الثانوية يجب التحكم فيها بالتفكير الأولى الشعورى حتى تصل إلى الدرجة المطلوبة من الدقة والاتقان .

ويجب أن نتنبه إلى أن السمات العقلية سالفة الذكر تنتمى إلى الرجل أكثر مما تنتمى إلى المرأة ، كما أن الإلهام والحدْس ينتميان إلى المرأة أكثر مما ينتميان إلى الرجل .

كما يجب علينا أن نتذكر دائماً فى هذا الكتاب أن المسألة ليست مطلقاً مفاضلة بين الجنسين ، إنما هى فقط بيان وجوه الاختلاف والتباين بينهما ، وبيان أن لكل منهما قيمة متساوية ، ولو أن قيمة كل منهما من نوع مختلف . وأنا أذكر هذا الكلام ، لكى أتمكن قدر الطاقة من تجنب الغضب الذى قد يبديه البعض عند استعراض نتائج الأبحاث العلمية التى تؤيد نظرية التباين بين الجنسين .

* * *

الإعلام .

وفي مرحلة

مما يؤدي إلى ظهور

من خلال

المذكورة قبلها في

على تركيز

القسم الثالث

محصلة وتمهيد

ثالثا

محصلة وتمهيد

تبين لنا من خلال العرض السابق طبيعة التباين الموجود بين المرأة والرجل ، وكيف أن هذا التباين لا يأتى فقط من الشكل الخاص للأعضاء الجنسية والحوض ، ومن وجود الرحم والحيض والحمل وخلافه . بل ينبع من طبيعة أكثر عمقاً ؛ حيث ينشأ الخلاف بين الجنسين من تكوين الخلايا والأنسجة ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة تفرزها الغدد المختلفة . فالأنثى تحمل طابعاً أنثوياً فى كل خلية من خلايا جسمها ، وفى كل هرمون من هرموناتها ، وفى كل عضو من أعضائها ، وفوق كل شىء فى جهازها العصبى . والرجل أيضاً يحمل طابعاً ذكورياً فى كل هذه النواحى .

وتبين لنا كذلك كيف أن هذه الاختلافات التشريحية والوظيفية تتصاعد حتى تصبح اختلافات فى النفس والعقل والوجدان .

وبناء على هذه الاختلافات العميقة والمتشعبة بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل ، كان منطقياً أن ينشأ اختلاف حاسم بينهما فى المهمة والأهداف ، حتى يواجه كل منهما مطالب الحياة مواجهة عادلة حسب إمكانياته وقدراته .

والمرأة والرجل هما شقا الإنسانية . والمساواة بينهما فى القيمة الإنسانية المشتركة مطلب عادل ومنطقى . أما المساواة الآلية المزعومة ، فدعوة فارغة ليس لها أساس من الواقع إلا الحذلقة والتشدق . هل يريد هؤلاء المدّعون أن يغيروا طبائع الأشياء ؛ فيحولوا الرجل إلى امرأة ، والمرأة إلى رجل ؟! أم هل يريدون أن يحولوا كلاً منهما إلى شىء آخر متشابه ومتماثل فى كل شىء ؟! إن أمراً من هذا القبيل لهو خطر كبير لو حدث - ولن يحدث - لأدى بالبشرية إلى التعاسة والضياع . يؤدى بها إلى التعاسة والضياع ؛ لأن التنافر الطبيعى بين الأقطاب المتماثلة سيبرز وسيستمر ، وسيقضى على معانى التآلف والانسجام والحب ؛ فالرجل لا يريد أن يقضى حياته مع رجل مثله ، والمرأة لا ترضى أن ترتبط بامرأة مثلها ، تشاركها إيجابياتهاوسلبياتها مشاركة الآلية والتماثل .

إن القطب السالب لاينجذب إلا إلى قطب موجب، والقطب الموجب لا ينسجم إلا مع قطب سالب . فلو ساوينا بين الجنسين مساواة التماثل المطلق فى الطبائع والسمات ؛ فلن يلتقيا أبداً وستزداد الهوة بينهما عمقاً واتساعاً ووحشة أما التآلف والانسجام والاحتواء ، فأمور لن تتأتى إلا إذا كانت منحنيات المراة تقابل نتوءات الرجل كأنها مخلوقة على قدها لتتداخل معها وتستقر فيها . إن أملنا المنشود فى تآلف الرجل والمرأة ، لن يحدث إلا إذا كان كل تجويف فى المرأة يقابله بروز فى الرجل ، وكل تجويف فى الرجل يقابله بروز فى المرأة* .

إن الذين ينادون بالمساواة الآلية ، القائمة على إزالة الفوارق الأساسية بين الجنسين ، يجهلون تماماً طبيعة الأشياء ؛ ذلك أن السمات التشريحية وقوانين وظائف الأعضاء وما يتفرع عنهمامن نواح أخرى – أمور محددة ومنضبطة تماماً مثل قوانين الفلك ، بحيث لا يكون فى وسعنا إحداث أى تغيير أو تعديل فيها بمجردالأمنيات الساذجة التى تجهل طبيعة الحياة والأشياء . ومن ثم يجب علينا أن نتقبلها على ما هى عليه بقبول حسن . وعلى كل من الجنسين أن يقوم بتنمية قدراته ومواهبه وفقاً لطبيعته الفطرية الخاصة ، وأن يبتعد كل منهما عن محاولة التشبه بالآخر وتقليده .

إن تكوين المرأة البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من مرونة فى الملمس ، ورقة فى المشاعر ، وجيشان فى العاطفة ، وانفعال فى الوجدان .. هو الاستعداد الحقيقى لأنبل المهام وأهمها على الإطلاق : مهمة بناء الإنسان .

وتكوين الرجل البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من صلابة فى العضلات ، وتحكم فى العاطفة ، ومنطقية فى التفكير .. هو الاستعداد القادر على صراع البقاء وتحدى قوى الطبيعة ، والملائم لتنظيم مجريات الحكم وقوانين المعيشة والاقتصاد ؛ من أجل إشباع الحاجات والرغبات ، وحماية الأسرة والمجتمع من أى خطر أو عدوان .

---

* لا أقصد هنا المنحنيات والنتوءات الجسمية فحسب ، بل أقصد أيضاً المنحنيات والنتوءات النفسية والعقلية والاجتماعية ... والأمر بالمثل بالنسبة للمقصود من لفظتى التجويف والبروز .

وبقدر ما نرفض أى شكل من أشكال المساواة الآلية بين الجنسين ؛ نؤمن ونطالب بالمساواة بينهما فى القيمة الإنسانية ، وما يتفرع عنها من وجوه يجب التسوية فيها بينهما؛ إذ أن كلاً منهما من طينة واحدة ومن أصل واحد. وكثيراً ما ذكرنا فى هذا الكتاب أننا لا نرتضى أى لون من ألوان المفاضلة أو المفاخرة التى قد يعقدها الرجل والمرأة كل ضد الآخر .

وأخيراً ، فهذه المحصلة هى التمهيد المنطقى الواجب لبيان نظرة الإسلام إلى الجنسين ، ولمعرفة كيف سوّى بينهما فى الأمورالتى تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان ، ولمعرفة كيف فرق بينهما فى بعض النواحى التى تنشأ من تبيان طبائعهما ، واختلاف وظائفهما ؛ لتحقيق صالحهما ، وصالح كل من الأسرة والمجتمع والحضارة .

* * *

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

القسم الرابع

الأمور التى سوّى فيها الإسلام بين الذكر والأنثى

* القيمة الإنسانية
* المسئولية الخاصة والعامة
* الثواب والعقاب
* الحقوق المدنية
* حق إبداء الرأى
* حق التعلم والتعليم
* حق الانفصال

القسم الرابع

الأمور التي تميز فيها الإسلام بين الملل والأمم

* القيمة الإنسانية
* الشمولية الخالدة والعامة
* الثواب والعقاب
* الحقوق المدنية
* حق إبداء الرأي
* حق التعليم والتعلم
* حق الاكتساب

المساواة بين الذكر والأنثى
فى القيمة الإنسانية

يسوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية الانطولوجية (الوجودية) ؛ حيث خلق الله الاثنين من طينة واحدة ومن معين واحد ؛ فلا فرق بينهما فى الأصل والفطرة ، ولا فى القيمة والأهمية . والمرأة هى نفس خلقت لتنسجم مع نفس ، وروح خلقت لتتكامل مع روح ، وشطر مساو لشطر .

قال تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُترَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ** ﴾ (القيامة : ٣٦ – ٣٩) ..

وقال تعالى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ (فاطر : ١١) ..

والإسلام يقرر أن قيمة أحد الجنسين لا ترجع إلى كون أحدهما ذكراً والآخر أنثى ، بل ترجع إلى الكفاية الشخصية والعمل الصالح .

يقول تعالى : ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (الحجرات : ١٣)

فهذه الآية الكريمة تنص – فيما تنص – على أن ليس للجنس من حساب فى ميزان « الله » ، إنما هناك ميزان واحد يعرف به فضل الفرد وتتحدد به قيمته ، سواء كان ذكراً أو أنثى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وهكذا يقرر منهج الله سقوط جميع الاعتبارات الأخرى المزعومة لأحد الجنسين دون الآخر ، ويرفع ميزانا واحداً بقيمة واحدة . فلا اعتبار للذكورة والأنوثة فى حد ذاتها ، وإنما الاعتبار بالعمل الصالح وحده ، والذى يُجْزَى عليه

الجميع : ذُكراناً وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس ؛ فالكل سواء فى الإنسانية - بعضهم من بعض - والكل سواء فى الميزان .

يقول تعالى : ﴿ **أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وهكذا يمحو الإسلام كل التصورات السخيفة التى كانت تتصورها الإنسانية عن المرأة ، والتى كانت ترى فيها منبعاً للرجس والشر والبلاء !

وهكذا يعطى الإسلام للمرأة حقوقها كاملة فى القيمة الإنسانية ، ويرد إليها كرامتها ، بعد أن كانت مجردة منها فى الحضارات السابقة التى سلبتها كل خصائص الإنسانية وحقوقها !

* * *

المساواة بين الذكر والأنثى
فى المسئولية الخاصة والعامة وفى الثواب والعقاب

الإنسان فى الإسلام – ذكراً أو أنثى – مسئول مسئولية شخصية عن عمله ، لايسأل فرد عن عمل آخر :

﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ .. (١٨ – فاطر)

﴿ **كل امرى بما كسب رهين** ﴾ .. (٢١ – الطور)

﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ .. (٣٩ – النجم)

وهذه المسئولية التى تقع على عاتق الجنسين بلا تفاوت ؛ فتجعل المرأة مسئولة وحدها عن عملها ، والرجل مسئولاً وحده عن عمله .. هى التى تجعل الجنسين يتساويان فى الجزاء : ثواباً وعقاباً ..

﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ (النساء : ٣٢) ..

﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهومؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾ (النحل : ٩٧) ..

﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً** ﴾ (النساء : ١٢٤) ..

﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله** ﴾ (المائدة : ٣٨) ..

﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ (النور : ٢) .

وفى أنواع العقوبات الأخرى ، ينص الإسلام أيضاً ، على المساواة الكاملة ، بين الرجل والمرأة ، بلا فرق ولاتفاوت ولامفاضلة .

هذا هو شرع الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. شرع الله الذى لا يحمّل إنساناً مسئولية آخر ، والذى يجعل كل فرد مسئولاً عن عمله سواء كان ذكراً أم أنثى .. شرع الله الذى يجعل المرأة مسئولة عن نفسها ، والرجل مسئولاً عن نفسه :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ، امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابْنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ .. (١٠ - ١١ التحريم)

وإذا كان الإسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى المسئولية الخاصة الذاتية ، فهو يسوى بينهما كذلك فى المسئولية العامة الموضوعية ، تلك المسئولية التى تجعل الاثنين مسئولين مسئولية مشتركة عن استقامة المجتمع أو انحرافه :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (التوبة : ٧١) ..

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ (التوبة : ٦٧ - ٦٨) .

إن مسئولية الدعوة إلى الخيرات والتحذير من الرذائل .. هى مسئولية كل من الرجل والمرأة ، كل فى ميدانه ، وعلى طريقته ؛ لأن المجتمع لا يستقيم ، والحياة لا تصفو ، إلا إذا تعاون الاثنان ، وشد كل منهما أزر الآخر .

المساواة بين الذكر والأنثى
في الحقوق المدنية

كان منطقياً من الإسلام ، بعد أن سوّى بين الرجل والمرأة ، فى القيمة الإنسانية الوجودية ، أن يسوى بينهما فى الحقوق المدنية على كافة مستوياتها : من تملك ، وتعاقد ، وبيع ، وشراء ، ووصية ، وهبة ، وحق فى توكيل الغير أو ضمانه ..

فللمرأة شخصيتها الكاملة ، مثل الرجل ، فى الإسلام ، « وهى قبل الزواج – مادامت بالغة عاقلة رشيدة – ليس لأوليائها سلطان مالى عليها ، بل إنها تدير مالها بنفسها أو بوكيلها ، وذمتها منفصلة عن ذمة أوليائها تمام الانفصال ، ولا يتولون إدارة أموالها إلا بتوكيل منها ، وهى فى هذا التوكيل حرة لها أن تعطيه ، ولها ألا تعطيه .

وبعد الزواج ، ذمتها منفصلة عن ذمة زوجها ؛ فلها أن تتولى شئون أموالها بنفسها ، وليس للزوج عليها سلطان فى ذلك إلا بتوكيل منها ، فإن منحته التوكيل – وهى حرة فى ذلك – تولى بمقتضى هذه الوكالة ، ولها أن تعزله عن الوكالة فى أى وقت شاءت .

ولا تعد أموالها مع زوجها شركة بينهما ؛ فكل منهما له (حق) التصرف فى ماله من غير تدخل الآخر فى أمره .

ويجب أن نقرر أمرين :

أحدهما – أن المرأة لم تثبت لها الولاية المالية على مالها فى أوروبا إلا من مدة لا تزيد على ثلاثين سنة ، وقد سبقها الإسلام فى ذلك بنحو أربعة عشر قرناً .

ثانيهما – أن الزواج فى أوروبا ، يجعل الرجل شريكاً للمرأة فى مالها ، وأن ما يكون لها قبل الزواج من مال يدخل فى هذه الشركة ، ويكون الزوج له حق التصرف فى مال الشركة ؛ وهو بذلك وصى أو وكيل وكالة إجبارية عن امرأته » .. (تنظيم الإسلام للمجتمع ، ٨٨) .

وعلى الزوج – تكليفاً لا تطوعاً – أن يقوم بالإنفاق على زوجته وأسرته . وليس له مطلقاً أن يمس مال زوجته الخاص بحجة الإنفاق عليها إلا بالتراضى التام بينهما . وإذا لم ترض الزوجة ، فعليه أن ينفق عليها كأنها لا تملك شيئاً . فإذا بخل أو امتنع عن الإنفاق ، فللزوجة أن تشكوه ، ويحكم لها القاضى بالنفقة أو بالانفصال إذا شاءت .

هذه كانت حقوق المرأة فى الشئون المالية باعتبارها جانباً من جوانب الحقوق المدنية . وكما رأينا ، فإن الإسلام يعطيها من الحق والأهلية مثلما يعطى الرجل تماماً .

وفى هذا المقام ،قد يطرأ تساؤل ذو أهمية بالغة ، لا نجد مفراً من طرحه ، وهو : إذا كان الإسلام يعطى المرأة كل هذه الحقوق ، فهل يعطيها أيضاً حق اختيار الزوج ؟

ينص الإسلام نصاً صريحاً على أن للمرأة – ثيباً أو بكراً – كمال الحرية فى اختيار الزوج ؛ فلها أن تقبله ، ولها أن ترفضه ، ولا حق لأبيها أو وليها فى إجبارها على الزواج ممن لا ترضاه .

وهاك أيها الأخ القارىء بعض النصوص التى تثبت ذلك :

– قال رسول الله ﷺ : « تُستَأمر النساء فى أبضاعهن ، والثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تُستَأمر فى نفسها ، فإن سكتت فقد رضيت » . والاستئمار هو طلب الأمر ؛ فلا يعقد عليها حتى تشاور ويطلب منها الأمر بالموافقة أو الرفض حسب اختيارها .

– وجاء فى الصحيحين : أن خنساء بنت جذام ، زوجها أبوها وهى كارهة ، وكانت ثيباً ؛ فأتت رسول الله ﷺ ؛ فرد نكاحها .

– وجاء عن ابن عباس : أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ ، فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة ، فخيّرها النبى ﷺ ، فقالت بعد أن جعل الحق لها : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أُعْلِم النساءَ أن ليس للآباء من الأمر شيء .

هذا هو الإسلام العظيم ، وهذه هى نظرته الصائبة ، وهذا هو حكمه العدل ، وهذا هو منطقه السليم ، الذى لم تصل إليه أرقى الأمم ولا أرقى الحضارات !

* * *

المساواة بين الذكر والأنثى
فى حق إبداء الرأى

إن الإسلام الحكيم الذى سوّى بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية الوجودية .. هو الآن الذى يسوى بينهما فى حق إبداء الرأى والاعتداد به .

وإننا فى هذا الموضع لنتذكر جيداً ما جاء فى مطلع سورة المجادلة ؛ حيث يقول تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم** ﴾ ..

روى أحمد عن خويلة بنت ثعلبة ، قالت : فىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت : قلت : كلا والذى نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » ، قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فىّ

قرآن ؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآناً » .. ثم قرأ علىّ : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير** ﴾ .. إلى قوله تعالى :﴿**وللكافرين عذاب أليم**﴾.. قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » ، قالت : فقلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه لشيخ ما له من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : والله يا رسول الله ماذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بعرق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدق به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً » قالت : ففعلت .

وتقول عائشة – فيما أخرجه البخارى والنسائى – : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ؛ لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ – فى جانب البيت ، ما أسمع ما تقول ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ... الآية** ﴾ .

هكذا يسمع الله الحوار الذى دار بين خولة[10] ورسول الله ﷺ .. يسمع المرأة وهى تجادل رسول الله ؛ فينزل تبارك وتعالى من فوق سبع سموات حكمه ، ليعطى المرأة حقها كاملاً ، سواء فى حق الحوار والمجادلة وإبداء الرأى أو فى حق إرساء القواعد الأسرية على أسس سليمة .

ولا شك فى أن هذه الحادثة تدل دلالة قطعية على احترام الإسلام لرأى المرأة ، والنظر إليها على أنها إنسانة صاحبة رأى يُعْتَدُّ به طالما له وجاهته وقيمته مثلما يعتد برأى الرجل إذا توفرت له شروط الوجاهة والقيمة .

ويكفينا أن نعلم أن هذه السورة الكريمة لم تكن إلا أثراً من آثار حرية الرأى والتعبير ، التى كانت مشاعة يومئذ ليس بين الرجال وحدهم ، بل بين الرجال

---

(١٠) أو خويلة للتصغير والتدليل .

والنساء ، بلا تفاوت ولا تفرقة .

وإذا كان الإسلام يعطى المرأة حق إبداء الرأى ، مثل الرجل ، فى الشئون الخاصة .. فهو يعطى لها أيضاً نفس الحق فيما يتعلق بالشئون العامة ؛ ولعلنا نتذكر ما حدث فى صلح الحديبية ، فبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من كتابة المعاهدة – حاك فى صدور البعض ما حاك من الوساوس والتوجسات – لدرجة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب ، وقال لأصحابه رضى الله عنهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال (أى الراوى) : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة رضى الله عنها فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت : يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ولا تكلم منهم أحداً حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .... (أخرجه البخارى وأبو داود فى جزء من رواية مطولة ،حسبما ورد فى تيسير الوصول ٣ : ٢٤٩ – ٢٥٥) .

فانظر معى أيها القارىء ، كيف أبدت أم سلمة رضى الله عنها رأيها فى موقف صعب وحرج ، وكيف استجاب الرسول ﷺ لرأيها لأنه أدرك حكمته ووجاهته . وبالفعل ما إن نفذ الرسول ما قالت ، حتى استجاب الجمع ، وأبدوا فروض الطاعة والالتزام .

هكذا يعطى الإسلام للمرأة حقها الكامل المتكامل فى إبداء رأيها فى الشئون الخاصة والعامة ، شأنها فى ذلك شأن الرجل سواء بسواء .

* * *

المساواة بين الذكر والأنثى
فى حق التعلم والتعليم

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .. (٩ – الزمر)

إن العلم لا يستوى مع الجهل ، وصاحب العلم فى واد ، وفاقده فى واد آخر . والذى يرى الحق فى كل شيء ، ويتذكره فى كل موقف ، هو ذاك الإنسان الذى جمع فى عقله الواعى العلم الذى يؤهله إلى إدراك الحقائق الكونية الكبرى ، ويمتد به إلى ما وراء الظواهر المحسوسة ؛ فينتفع بما يرى ويدرك انتفاعاً يجعله يسلك سلوك الرشد والاستقامة .

ومن ثم كان منطقياً أن يمثل العلم فى نظر الإسلام أساس القيم التى يجب على الإنسان أن يحيا بها ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يمارس الصواب ويمتنع عن الخطأ إلا إذا كان لديه العلم الذى به يتبين الرشد من الغى .

وصراع الإسلام مع الكفر والتطرف .. هو صراع مع الجهل والخرافة ؛ ذلك أن الكفر والتطرف يستندان أساساً على أوهام وأباطيل ليس لها سبب إلا الجهل والقصور المنطقى .

﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ .. (٤٠ – فاطر)

﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ .. (٢٩ – الروم)

﴿ أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ .. (٦٤ – الزمر)

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ .. (٣٩ – يونس)

ولقد بلغت أهمية العلم درجة جعلته شرطاً محورياً ووحيداً فى فهم آيات الله القرآنية : ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .. (٤٣ - العنكبوت) ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .. (٩٧ - الأنعام) ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ .. (٩٨ - الأنعام)

وإذا كانت النماذج الحديثية ، التى جاءت عن رسول الله ﷺ ، فى بيان قيمة التعلم والتعليم - كثيرة ومتنوعة ، فإنّا سنكتفى فى هذا الموضع بنموذجين اثنين حتى لا نطيل فى هذه النقطة :

- « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثُوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » . رواه أبو داود والترمذى .

- « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ... إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلمى الناس الخير » . رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

والعلم بمفهومه الواسع الشامل فى الإسلام - واجب على كل مسلم ومسلمة ؛ فلا يفرق الإسلام بينهما فى هذا الحق . وإذا كان الإسلام يعطى المرأة هذا الحق ، فهو لا يعطيه للحرة فحسب ، بل يعطيه أيضاً للأمة . يقول الرسول ﷺ : « أيما رجل كانت عنده وليدة (أى جارية) ، فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » رواه البخارى .

ومن المعروف تاريخياً أن النساء كن يحتشدن فى مسجد رسول الله ﷺ حتى يسمعن النبى ويصلين معه من أجل التعلم .

وذكر البلاذرى فى « فتوح البلدان » نساء مسلمات تعلمن القراءة والكتابة يبلغ عدد المعروف منهن نصف عدد المعروف من الرجال والكتّاب .

وروى مسلم وأبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل عليَّ النبى ﷺ وأنا عند حفصة ، فقال لى : « ألا تعلمين هذه رُقية النملة (تحسين الخط) كما علمتها الكتابة » .

وكانت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر وأم المؤمنين سلمة رضى الله عنهما – كما ذكر الواقدى – تقرآن وإن لم تكتسبا مهارة الكتابة .

وهل هناك مَنْ ينسى دور السيدة عائشة وأختها أسماء فى رواية الحديث النبوى وتعليم المسلمين شئون دينهم ؟

وأم الدرداء الفقيهة العالمة التى وصفها النووى بقوله : « اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم » . وقد ذكر النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء » أسماء لبعض النساء العالمات اللاتى تولين رسالة نشر العلم وتعليمه .

وذكر ابن خلكان أن الإمام الشافعى كان يحضر مجلس علم السيدة نفيسة وسمع عليها فيه الحديث .

وذكر أبو حيان من بين أساتذته ثلاثاً من النساء ، هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى ، وشامية التيمية ، وزينب بنت المؤرخ الرحالة الطبيب عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب : « الإفادة والاعتبار » .

ويروى لنا التاريخ الإسلامى أسماء كثيرة لنساء كان لهن باع فى العلم والتعليم . ولعل فى اهتمام المؤرخين بتسجيل اسماء تلك النساء لمؤشر صادق على تقديرهم لهنّ واعتبار جهودهن فى هذا المجال جديرة بالتسجيل والتأريخ .

* * *

المساواة بين الذكر والأنثى
فى حق الانفصال

إن المنهج الإسلامى الحكيم المدرك تماماً لحقيقة النفس الإنسانية وما يجرى فيها من عواطف وأحاسيس ، كما يعطى للزوج حق الانفصال عن زوجته التى يكرهها ولا يطيق الحياة معها ، يعطى كذلك للزوجة حق الانفصال عن زوجها الذى تكرهه ولا تطيق الحياة معه .

ولكن الإسلام الذى ينطلق فى كل تشريعاته من الإدراك الكامل لطبيعة الذكر والأنثى – فى نفس الوقت الذى يعطى فيه كلاً منهما حق الانفصال ، يفرق بينهما فى كيفية وأسلوب هذا الانفصال ؛ مراعاة لمصلحة البناء الأسرى ، وحرصاً على إعطاء كل ذى حق حقه .

فهو يسوى بينهما فى الحق ، ويفرق بينهما فى كيفية استخدام هذا الحق ؛ حيث يعطى الرجل حق « الطلاق » ، ويعطى المرأة حق « الخلع » .

ولنا وقفة مطولة مع هذين الأسلوبين عند الحديث عن « اللامساواة بين الذكر والأنثى فى كيفية استخدام حق الانفصال » .

* * *

القسم الخامس

الأمور التى فرق الإسلام فيها بين الذكر والأنثى

* بعض التكاليف التعبدية
* فى هذه الأحكام الشرعية
* النفقة
* الميراث
* أداء الشهادة
* حق التعدد
* حق القوامة
* كيفية معالجة النشوز
* كيفية استخدام حق الانفصال :
  - الطلاق
  - الخلع

الإنسانية وما يجرى [illegible]

[illegible] عن زوجته التي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الذى يعطى [illegible] الا [illegible]

[illegible] مراعاة [illegible]

* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible]
* [illegible] :
  - [illegible]
  - [illegible]

ليس الذكر كالأنثى
فى بعض التكاليف التعبدية

رأينا فى القسم الأول والثانى من هذا الكتاب كيف أن المرأة تمتاز عن الرجل بالحساسية والمرونة ، وكيف أن تأثير كل من الحمل والحيض وما يصحبهما – تأثيرٌ بالغ الأهمية واسع النطاق جسمياً ونفسياً . وهذا ما يمثل فاصلاً طبيعياً حادًّا بين المرأة والرجل .

والآن نتساءل : هل الإسلام يتجاهل مثل هذه الفروق القائمة بين الجنسين فى تكليفه لهما أى تكليف تعبدى ؟

بالطبع إن دين الله لا يمكن أن يتجاهل مثل هذه الفروق ؛ لأن الله الذى خلق الرجل والمرأة ويعلم عنهما كل شيء .. هو الله الذى شرع لهما المنهج الإسلامى الذى يلائم طبيعتهما وطبيعة الاختلافات القائمة بينهما .

ومن ثمَّ ، فان الإسلام يبنى على أساس هذه الاختلافات الطبيعية القائمة بينهما تفرقةً فى بعض التكاليف التعبدية تهدف فى المقام الأول والأخير إلى مراعاة المرأة وصيانتها والتخفيف عنها ؛ رحمة بها وتقديراً لظروفها .

فالإسلام – مثلاً – يسقط عن المرأة فرض الصلاة أثناء الحيض والنفاس ، كما أنه لايكلفها بقضائها ؛ دفعاً للمشقة ، فإن الصلاة يكثر تكرارها . وفى رمضان لا يكلفها بالصيام إذا كانت حائضاً أو نفساء ، ويبيح لها إن كانت حاملاً أو مرضعة أن تفطر . بيد أنه يطلب منها قضاء الأيام التى أفطرت فيها بسبب هذه الأحوال ؛ حيث إن قضاءها ليس فيه مشقة ، فهى أيام معدودات . عن معاذة قالت : سألت عائشة رضى الله عنها ، فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ قالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ ، فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة . رواه الجماعة .

هذه بعض وجوه التفرقة فى بعض التكاليف التعبدية بين الذكر والأنثى . وفى الفصل التالى حصر كامل للأحكام التى تخالف الأنثى فيها الذكر .

ليس الذكر كالأنثى
فى هذه الأحكام الشرعية

قام علماء الفقه والأصول بحصر كامل للأحكام التى تخالف فيها الأنثى الذكر فى الشريعة الإسلامية .

وهاكم هذا الحصر الكامل لهذه الفروق :

الأنثى لا يجزىء فى بولها النضح ، ولا الحجر ، إن كانت بنتاً ..

والسنة فى عانتها النتف ..

وتمنع من حلق شعر رأسها ، وقال بعض الفقهاء : لا بأس للمرأة أن تحلق رأسها لعذر مرض ووجع ، وبغير عذر لا يجوز ..

ومنيها نجس فى وجه ..

وتزيد فى أسباب البلوغ : بالحيض ، والحمل ..

ولا تؤذن مطلقاً ، ولا تقيم للرجال ..

وعورتها تخالف عورة الرجل ؛ حيث إن بدنها كله عورة إلا وجهها وكفيها ..

ويكره لها دخول الحمام العام ، وقيل : يحرم ..

ولا تجهر بالصلاة فى حضرة الأجانب ، وفى وجه مطلقاً ..

وتضم بعضها إلى بعض فى الركوع والسجود ..

وإذا نابها شىء فى صلاتها صفقت ، والرجل يسبح ..

ولا تجب عليها الجماعة ، ويكره حضورها للشابة ، ولا يجوز الحضور إلا بإذن الزوج ، وصلاتها فى بيتها أفضل من المسجد ..

ولا يجوز اقتداء الرجل والخنثى بها ..

وتقف إذا أمت النساء وسطهن ..

ولها لبس الحرير ، وكذا افتراشه فى الأصح ، وحلى الذهب والفضة ..

ولا جمعة عليها ، ولكن تنعقد بها ؛ أى تحسب من الجماعة التى هى شرط انعقاد الجمعة كالمسافر والعبد والمريض .. ولاترفع صوتها بتكبير العيد ، ولا تلبية الحج .

والأفضل تكفينها فى خمسة أثواب ، وللرجال ثلاثة . ويقف المصلى عليها عند عجزها ، وفى الرجل عند رأسه . ويندب لها نحو القبة فى التابوت ..

ولا يسقط بها فرض الجنازة مع وجود الرجال فى الأصح ..

ولا تحمل الجنازة وإن كان الميت أنثى ..

ولا تأخذ من سهم العاملين ، ولا سبيل الله ، ولا المؤلفة ، فى وجه .. ولا تقبل فى الشهادات : إلا فى الأموال ، وما لا يطلع عليه الرجال ..

ولا كفارة عليها بالجماع فى رمضان ..

ويكره لها الاعتكاف ؛ حيث كرهت الجماعة ..

ولا تسافر إلا مع زوج أو محرم ، فيشترط لها ذلك فى وجوب الحج عليها ، فلا يجب عليها الحج إلا بأحدهما ..

ولا تلبى جهراً ، ولا تنزع المخيط ، ولا تسعى بين الميلين الأخضرين . ولا تحلق ، إنما تقصر ، ولا ترفل ، والتباعد فى طوافها عن البيت أفضل . ويندب لها عند الإحرام : خضب يديها ، ووجهها ..

ويباح لها : الخضب بالحناء مطلقاً ، ولا يجوز للرجل إلا لضرورة .

ويجوز بيع لبنها سواء كانت أمة أم حرة ، على الأصح ؛ بخلاف الرجل ..

ولا تصح معها المسابقة ؛ لأنها ليست من أهل الحرب ..

ولا يقبل قولها فى استلحاق الولد إلا ببينة فى الأصح ، بخلاف الرجل ..

وهى على النصف من الرجل فى الإرث ، والشهادة ، والغرم عند الرجوع ، والدية نفساً وجرحاً ، وفى هبة الوالد فى وجه ، وفى النفقة على القريب فى أحد الوجهين ..

ولا تلى القضاء ولا الوصاية فى وجه ..

وتجبر الأمة على النكاح بخلاف العبد فى الأظهر . ولا تجبر سيدها على تزويجها قطعاً إذا كانت تحل له ، ويجبر على تزويج العبد فى قول ..

ويحل لها نكاح الرقيق مطلقاً ..

وبُضعها يقابل بالمهر ، دون الرجل ..

ويحرم لبنها فى الرضاع ، دون لبن الرجل ، على الصحيح ..

وتقدم على الرجال فى الحضانة ، والنفقة ، والدعوى ؛ والنفر من مزدلفة إلى منى ، والانصراف من الصلاة .

وتؤخر فى الموقف فى الجماعة ، وفى اجتماع الجنائز عند الإمام ؛ فتجعل عند القبلة والرجل عند الإمام ..

وتؤخر فى اللحد ..

وتجب الدية بقطع ثديها أو حلمتها ، بخلافه من الرجل ، فإن فيه الحكومة - أى حكومة العدل ..

ولا تباشر استيفاء القصاص ..

ولا تدخل فى القرعة ، على الأصح فى الشرح والروضة ..

ولا جهاد عليها ، ولا جزية ..

ولا تقتل فى الحرب ، ما لم تقاتل ..

ليس الذكر كالأنثى
في النفقة

أعفى الإسلام المرأة من جميع أعباء الحياة المعيشية ، وكلف الرجل أن يتكفل بذلك كله .

فما تحتاج إليه المرأة من طعام وشراب ومسكن وخلافه - أمور واجبة على أوليائها إن كانت ليست متزوجة أو معتدة ، وبيت المال مسئول مسئولية كاملة عن الإنفاق عليها إن كان ليس لديها قريب ميسور الحال يستطيع أن يقوم بنفقتها وحق النفقة بسبب القرابة ، فيه تفاصيل كثيرة ، لا يهمنا فى هذا الموضع إلا ما أشرنا إليه ، وقد تعرض الإمام أبو زهرة لهذا الموضوع تعرضاً مفصلاً فى كتابه « الأحوال الشخصية » ، فليرجع إليه من شاء .

وإذا كانت المرأة متزوجة ، فنفقتها واجبة على زوجها ، باعتبار ذلك حكماً من أحكام عقد الزواج الصحيح ، وحقاً من حقوقه الثابتة للزوجة على زوجها بمقتضى العقد ، ولذلك تجب ولو كانت الزوجة غنية ، سواء أكانت مسلمة أم كانت غير مسلمة ؛ لأن سبب الوجوب هو الزواج الصحيح وهو متحقق فى الزوجات جميعاً .

وقد ثبت وجوب النفقة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس : أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** ﴾ .. (٣٣ - البقرة) والمراد بهن : الزوجات . وقوله تعالى فى حق المطلقات : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ .. (٧ - الطلاق) وقوله تعالى فى حق المطلقات أيضاً : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم** ﴾ (٦ - الطلاق) ، وإذا كان ذلك حق المطلقات فى أثناء العدة ، فحق الزوجات أوجب .

وأما الحديث ، فقوله ﷺ فى حجة الوداع : « اتقوا الله فى النساء ؛ فإنهن عوانٍ عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكروهونه ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وروى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : ما حق المرأة على زوجها ؟ فقال ﷺ « يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يهجرها فى البيت ، ولا يضربها ، ولا يقبح » .

وفى البخارى ومسلم أن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، إلا ما آخذ من ماله بغير علم ؛ فقال رسول الله ﷺ : « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » .

ولقد انعقد إجماع المسلمين على ذلك من عهد النبى ﷺ إلى الآن لم يخالف فى ذلك أحد .

وأما القياس ، فإنه من القواعد المقررة فى الفقه « أن من حبس لحق غيره فنفقته واجبة عليه » ؛ فالمفتى ، والوالى ، والقاضى ، وغير هؤلاء من العاملين فى الدولة ، نفقاتهم تجب على بيت المال ؛ لأنهم حبسوا أنفسهم عن طلب الرزق لمنفعة الدولة ؛ فحق عليها أن تقدم لهم ما يكفيهم وأهلهم بالمعروف . ولقد حبست الزوجة نفسها للقيام على البيت ورعاية شؤونه ؛ فحقت لها النفقة جزاء الاحتباس . (الأحوال الشخصية ، ٢٣١) .

فالتكليفات المالية كلها على الزوج ، حتى المراحل التمهيدية للزواج هو مسئول عنها كلية ؛ فعليه أن يدفع المهر للزوجة ، قال تعالى : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ (٤ – النساء) وفى هذا دلالة على أن المهر هدية لازمة للزوجة لزوماً متراخياً من غير وكس ولا شطط ، ومن غير عنت ولا إجهاد . والمهر أمارة المودة ، وسبب لتأليف القلوب ؛ وجاء أن النبى منع على بن أبى طالب من الدخول على فاطمة بنته ﷺ ، حتى يعطيها شيئاً من المهر .

كما أن على الزوج إعداد بيت الزوجية – كما هو رأى الأحناف – لأن النفقة بكل أنواعها من مطعم وملبس ومسكن عليه ، وإعداد البيت من المسكن : فكان بمقتضى هذا على الزوج .

ويجدر بنا أن نذكر أن الزوج ليس له أن يمس مال زوجته ؛ لأنه خاص بها ، وذمتها منفصلة تماماً عن ذمة زوجها ، ونفقتها واجبة على زوجها . وإذا كانت الزوجة عاملة ، فنفقتها أيضاً على زوجها طالما كان موافقاً على عملها ، كأن تكون مثلاً مدرسة أو طبيبة . بيد أنها إذا ارتأت أن تعاون زوجها فى النفقة ، نظراً لصعوبة المعيشة وضيقها ، ورضى الزوج بذلك ، فهىء وما تشاء ، ليس لأحد عليها سبيل .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
في الميراث

مصادر التوريث فى القرآن ثلاث آيات وردت فى سورة النساء :

﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .. (١١ – النساء)

﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد ، فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك ، فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله ، والله عليم حليم ﴾ (١٢ – النساء)

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين ، فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم ﴾ . (١٧٦ – النساء)

تلك الآيات الثلاث تشتمل على أصول التوريث ، وهناك فروع انبثقت عن هذه الأصول ، بينت السنة النبوية بعضها ، أما البعض الباقى فقد استنبطه الفقهاء من النصوص الأصلية . وفى هذا الموضع لن نعرض للتفاصيل

والتفريعات ؛ لأن الذى يعنينا هنا شىء واحد فقط هو بيان وجه الحكمة فى التفرقة بين الرجل والمرأة فى التوريث .

وبادىء ذى بدء يجدر بنا أن نشير إلى المساواة الكاملة التى يقررها الإسلام بين الرجل والمرأة فى الأموال المكتسبة عن طريق التجارة والعمل وخلافهما ؛ لأن المعيار هنا ليس معيار « الذكورة والأنوثة » ، وإنما هو معيار « الجهد والكفاءة » .

وبالنسبة لمسألة الميراث ، فهى « مسألة حساب » ، وليست - بأى وجه من الوجوه - محاباة لأحد الجنسين على حساب الآخر ، ولا إقلالاً من قيمة جنس لأجل جنس . إنما الأمر كله لا يتعدى مجرد « ملاحظة الحاجة » ؛ ذلك أن الرجل مكلف بالقيام على إعالة أسرة مكونة بطبيعة الحال من « امرأة » وأولاد ، وليست المرأة مكلفة بشىء ألبتة فى هذا الصدد . وقد رأينا من قبل كيف أن كل أموالها وممتلكاتها خاصة بها وحدها ولا تنفق منها شيئاً على الأسرة ، وكيف أن إعالتها قبل الزواج وبعده تكون على « رجل » ، فإن لم يكن فعلى « بيت المال » .

فمراعاة التوازن بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى هى التى جعلت الذكر يأخذ ضعف الأنثى . والمساواة العادلة هى التوريث وفقاً لمقدار الحاجة ، أما المساواة عند تفاوت مقدار الحاجة والعبء .. فهى المساواة الظالمة التى تهضم الحقوق وتغفل عن مراعاة الظروف[11].

* * *

---

(١١) تجدر الإشارة إلى أن هناك حالات يكون فيها حظ الأنثى مثل حظ الذكر فى الميراث ، من الممكن أن يتبينها الأخ القارىء بالرجوع إلى الآيات الكريمة التى أوردناها فى مطلع هذا المبحث .

ليس الذكر كالأنثى
فى أداء الشهادة

﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ ..
(٢٨٢ – البقرة)

لماذا شهادة امرأتين تعادل شهادة الرجل ؟

هنا أرجو من الأخ القارىء أن يعود بذاكرته إلى ما كتبناه عن سمات المرأة النفسية والعقلية ؛ فهناك أشرنا إلى أن القدرة العاطفية هى المحور الأساسى الذى يوجه نفس حواء وتفكيرها ، وأن المشاعر والأحاسيس العاطفية هى الحالة الطبيعية بالنسبة لها ، والذى يندر أن تهجرها ، وإذا هجرتها وجدت فى نفسها مقاومة باطنية تنبع من أعمق أعماقها .. أما الرجل ، فالمشاعر العاطفية لا تمثل لديه سوى عدول مؤقت عن حالته الطبيعية . ومن السمات التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرة العاطفية عند حواء : سرعة التأثر العاطفى ، وسرعة التأثر بالإيحاء ، وسرعة الاستجابة للدوافع . وتتجلى عاطفة حواء بصفة خاصة عند التجارب المؤثرة والممارسات التى تبعث على الإشفاق أو الخوف .

ونعود لنسأل مرة أخرى : لماذا امرأتان ؟

لأن المرأة بطبيعة تكوينها النفسى ، الذى ذكرناه ، والذى لم نأتِ به من عند أنفسنا ، بل هو نتيجة بحوث ودراسات طويلة أجراها علماء النفس – المرأة بطبيعتها تلك قد تخضع للمؤثرات والإيحاءات المحيطة بملابسات « أداء الشهادة » فيؤدى هذا إلى ضلالها عن الوقائع شعورياً أو لاشعورياً . ووجود امرأة أخرى كفيل بالقضاء على أى لون من ألوان الخضوع لأى انفعال أو تأثر أو إيحاء **﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾** . فالأمر لا يعدو مجرد ضمان للحيدة الكاملة التى لا تأتى إلا بالوقوف ضد نوازع العاطفة ، والتصدى لمغريات الشعور من رغبة ورهبة .

وهذا ما يتسق اتساقاً كاملاً مع التصور القرآنى الذى يبغى شهادة خالية من الهوى والشبهة والشكوك ، تحقيقاً للعدل ، وحماية للحق :

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجرِمنكم شنآن قوم على ألا تَعدلوا ، اعدِلوا هو أقربُ للتقوى ﴾ .. (٨ – المائدة)

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تَتَّبعوا الهوى أن تَعدلوا وإن تَلوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .. (١٣٥ – النساء)

وما نود أن نلفت النظر إليه : أن اعتبار شهادة رجل تعادل شهادة امرأتين ، لا يعنى بأى وجه من الوجوه محاباة للرجل على حساب المرأة ، أو إقلالاً من شأن المرأة ورفعاً لشأن الرجل . إنما الأمر أمر حيطة واستيثاق وضمان ، وليس فيه مطلقاً ما يخدش كرامة المرأة أو يقلل من إنسانيتها وقدرها .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
فى حق التعدد

﴿ وإن خفتم إلا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خِفتم ألا تَعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تَعولوا ﴾ (٣ – النساءَ)

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حَرَصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تُصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ..
(١٢٩ – النساء)

الإسلام لم يبتكر نظام تعدد الزوجات ، ولم يستعره ، ولم يأمر به ؛ إنما رخص فيه وقيده . فهذا النظام كان مألوفاً أزمنة طويلة قبل أن يبزغ فجر الإسلام على العالمين . وما فعله الإسلام هو أنه قيد هذا النظام وحدده :

أخرج البخارى فى صحيحه : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم ، وتحته عشر نسوة ؛ فقال له النبى ﷺ : « اختر منهن أربعاً » ..

وأخرج أبو داود فى سننه : أن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ ؛ فقال : « اختر منهن أربعاً » ..

وأخرج الشافعى فى مسنده : أن نوفل بن معاوية الديلمى قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ؛ فقال لى رسول الله ﷺ : «اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى » ..

فالإسلام جاء مقيداً لنظام كان موجوداً سائداً ، ليس ذلك بين عرب الجزيرة فقط ، بل فى أنحاء المعمورة كلها ، يقول نيوفلد فى كتابه « قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين » : « إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه ، وإن كان بعض الربانيين ينصحون بالقصد فى عدد الزوجات ، وإن

قوانين البابليين وجيرانهم من الأمم التى اختلط بها بنو إسرائيل كانوا جميعاً على مثل هذه الشريعة فى اتخاذ الزوجات والإماء » .

أما المسيحية ، فلم يأتِ فى كتابها تحريم صريح لتعدد الزوجات ، وما جاء على لسان بولس الرسول مجرد استحباب للاقتصار على زوجة واحدة للزاهد فى نعيم الدنيا المنقطع عن مفاتنها ، وترك الزواج للمستطيع خير وأولى .

وإن أردنا تكوين رؤية سليمة عن نظام تعدد الزوجات وإباحته عند المسيحيين فى العصور الوسطى ، فإن وستر مارك يقول فى تاريخه : « إن ديارمات ملك أيرلندة كان له زوجتان وسريتان ، وتعدد زوجات الملوك الميروفنجيين غير مرة فى القرون الوسطى ، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السرارى ، كما يظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً بين رجال الدين أنفسهم . وبعد ذلك بزمن كان فيليب أوف هيس، وفردريك وليام الثانى البروسى ، يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين . وأقر مارتن لوثر نفسه تصر الأول منهما ، كما أقره ملانكتون . وكان لوثر يتكلم فى شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض ؛ فإنه لم يحرم بأمر من الله ، ولم يكن إبراهيم – وهو مثل المسيحى الصادق – يحجم عنه إذ كان له زوجتان . نعم إن الله أذن لأناس من رجال العهد القديم فى ظروف خاصة ، ولكن المسيحى الذى يريد أن يقتدى بهم ، يحق له أن يفعل ذلك متى تيقن أن ظروفه تشبه تلك الظروف . فإن تعدد الزوجات على كل حال أفضل من الطلاق . وفى سنة ١٦٥٠ الميلادية – بعد صلح وستفاليا ، وبعد أن تبين النقص فى عدد السكان من جراء حروب الثلاثين – أصدر مجلس الفرنكيين بنورمبرج قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين . بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات ، ففى سنة ١٥٣١ نادى اللامعمدانيون فى مونستر صراحة ، بأن المسيحى – حق المسيحى – ينبغى أن تكون له عدة زوجات . ويعتبر المورمون – كما هو معلوم – أن تعدد الزوجات نظام إلهى مقدس ... » ..

فتعدد الزوجات نظام كان سائداً قبل الإسلام وبعده ، والإسلام لم يبتكره ، ولم يستعره ، ولم يأمر به ، ولكنه قيده وحدده ، نظراً للحالات والاحتمالات التى

يكون فيها التعدد لازماً ولا مفر منه . وإذا كان الإسلام قد أباح للرجل أن يجمع بين أربع نساء ، فهو قد اشترط عليه العدل بينهن فى المأكل والمشرب والمسكن ، وأن يكون قادراً على إعفافهن وصيانة أعراضهن وقادراً على الإنفاق عليهن وعلى أولاده منهن . فإذا عجز الرجل عن إقامة العدل بين أسرته المكلف بها ، أو عجز عن صيانة زوجاته وعرضهن للفسوق والفساد ، أو عجز عن الإنفاق عليهن أو على أولاده ؛ فإنه لا يجوز له أن يعدد ؛ لأن إباحة التعدد شرعت لمنفعة المجتمع والأفراد ، فإذا ترتب عليه ضرر أدبى أو مادى ، فلابد من زوجة واحدة فقط : **﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾** ..(١٢)

والإسلام عندمايبيح التعدد ، فهو يراعي الفطرة والواقع والضرورة ، وإذا لم يشرع هذا التشريع فسيغدو تشريعاً ناقصاً لا يلائم كثيراً من أحوال الناس والمجتمعات . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

يثبت علم الإحصاء أن نسبة الوفيات فى الذكور أكثر منها فى الإناث ، وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب ؛ الأمر الذى يسبب زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور .

وقد نشرت مجلة « هاربر » مقالاً لـ « سيليج جرينبرج » ، ونشرته مجلة « المختار » فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨م ، جاء فيه : أن مكتب التعداد بالولايات المتحدة يتنبأ بأن النساء سيرتفع عددهن فى أمريكا بمعدل مليون كل عشر سنوات ، وأن الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : إن لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد فى الرجال .. إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال . فهل يمكن إيجاد طريقة ما لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟! أم نرى أن العالم سيلجأ إلى إباحة تعدد الزوجات ؟

---

(١٢) ٣- النساء .

وقد نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٩٦٥/١١/١٦م إحصاء يقول : إن عدد النساء فى الولايات المتحدة يزيد على عدد الرجال بنحو مليونى نسمة ، وفى ألمانيا الغربية بثلاثة ملايين نسمة ، وفى الاتحاد السوفيتى بعشرين مليون نسمة .

وفى الحروب والمعارك ، تكون نسبة الوفيات ، امرأة واحدة لكل أربعة آلاف رجل ، ويكفينا أن نعرف أنه فى الوقت الذى قتلت فيه بضعة آلاف من النساء فى الحرب العالمية الثانية ، قد قتل ما يقارب خمسين مليوناً من الرجال .

ومن الأسباب التى تؤدى إلى زيادة عدد الإناث على الذكور — كثرة الأخطار التى يتعرض لها الرجال فى المصانع والمعامل وكافة الأعمال الأخرى التى تؤدى إلى الأمراض والحوادث ، والتى يقوم بها الرجال دون النساء ، مثل : أعمال المطافى ، والإنقاذ ، والملاحة ، والصيد ، والمعمار ، وغيرها .

وقد تقف أعباء المعيشة والحياة أمام كثير من الشباب ، فلا يستطيع أن يتزوج منهم إلا نسبة لا تتجاوز الثلث ، ويظل الثلثان بلا زواج . ومعنى ذلك أن يظل ثلثا الشابات بلا زواج ، وهذا إذا تساوت نسبة العدد ؛ فما بالنا والنسبة لا تتساوى ؟

كل ذلك يسبب تخلف نسبة كبيرة من الإناث عن الزواج ، والنتيجة الحتمية لذلك ما نراه واضحاً من انتشار البغاء العلنى والسرى فى الأمم ، التى تأخذ بنظام الزوجة الواحدة ، انتشاراً يفوق انتشاره فى غيرها من الأمم أضعافاً مضاعفة ، وما يصاحب ذلك من انتشار الأولاد غير الشرعيين ، لدرجة أن نسبتهم قد تصل إلى ما يقرب من ربع المواليد الشرعيين إن لم تزد . هذا فضلاً عن انتشار الأمراض السرية الفتاكة .

ومن المعلوم أن هناك ظروفاً وأحوالاً تمر بالرجال فلا يجد مندوحة من الزواج بامرأة غير زوجته . أفلا يكون أكرم للزوجة التى لا تستطيع القيام بواجباتها ، أن تقاسمها غيرها زوجها فى هدوء وبلا ضجة ، ولاسيما إذا ما كان بهذه الزوجة من العيوب مالا يمكن للزوج احتماله ؟

فقد يكون بالزوجة عيب يمنعها من إنجاب الأولاد ؛ أفينقطع عقب الرجل لأنه لا يستطيع أن يتزوج من أخرى ؟ وهل من عدالة التشريع أن يحبس هذا الزوج على هذه الزوجة؟! إنها إذن حياة نكدة لا لون لها ولا طعم ؛ أفيكون هذا أفضل أم أن تقاسمها زوجة أخرى زوجها ؛ فتنجب له وتجعل له ذرية وعقباً ؟

وقد يكون بالزوجة عجز لا تستطيع معه القيام بشئون زوجها وبيتها .. أفلا يكون من الأرحم بالزوج أن يتزوج مَنْ تعنى بشئونه وشئون زوجته الأخرى ؟ إن ذلك ممكن وميسور ، والواقع يشهد له ويؤيده .

وقد تكون الزوجة غير قادرة على أداء واجباتها الجنسية لمرض أو خلافه ، فهل يقف الزوج أمام رغبته وغريزته ويعرض نفسه لألوان من الكبت والحرمان من أجل خاطر زوجته ؟ إن استطاع فهو وما يشاء ، ولكن إن لم يستطع ؛ فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وفى كل هذه الحالات وما يشابهها ، يكون أمام الزوج إما أن يطلق الزوجة الأولى ويتزوج أخرى تلبى رغباته واحتياجاته ، وإما أن يتزوج بأخرى ، ويبقى على الزوجة الأولى تقديراً لحق أيام قضاها معها ولحق ميثاق غليظ أخذه الله عليه . فأى البديلين أحق بالاتباع : الأول أم الثانى ؟

لا شك أنه البديل الثانى ؛ لأن أى امرأة مريضة مرضا دائما أو عاجزة جنسياً ، أو بها عيب منفر ، أو عقيم ؛ قلما تجد رغبة فى الطلاق ، وغالباً ما تدفع هى زوجها لكى يتزوج بأخرى حتى تقوم به وباحتياجاته .

وإذا كان بعض مفكرى أوروبا وأمريكا يرفضون نظام تعدد الزوجات لعلاج مثل هذه المشكلات ، ويأخذون بمدأ إباحة العلاقات الجنسية . فهم بموقفهم هذا يدللون دلالة عظيمة على الفرق بين مجتمعين ، يقوم أحدهما على أقوم المبادىء ويرغب فى تأدية واجبه كاملاً نحو أفراده ورعاياها ، بينما يقوم الآخر على مبادىء حيوانية رفعت الحجاب بين الانسان والحيوان ، وتجاهلت واجب صيانة الفرد والأسرة . وهذا هو الفرق على كل حال بين زواج قانونى يكفل للمرأة ولأولادها حياة نظيفة مستقرة متوجة باحترام المجتمع وتقديره ، وبين إباحة جنسية تفتقد

الطهارة والاستقرار والاحترام ، وتجعل ثمرتها من الأولاد عرضة للتشرد والضياع مهما تكفلت الدولة باحتياجاتهم المادية .

ومن الخطأ تماماً أن يدعى أحد أن مبدأ وحدة الزوجة هو المبدأ الذى تعتنقه المرأة بوجه عام ؛ إذ أنه لا يعدو أن يكون وجهة نظر الزوجة الأولى فقط ، أما الزوجات الأخريات فلهن وجهة نظر أخرى .

وقد يتساءل البعض : لم لا يكون هناك تعدد أزواج مثل تعدد الزوجات ؟!

لاريب ان مثل هذا السؤال يحمل فى ذاته عوامل انهياره وتصدعه ؛ لأن كل الحيثيات التى ذكرناها فى بيان وجه الحكمة فى تشريع تعدد الزوجات .. هى نفسها الحيثيات التى نرفض من أجلها مبدأ تعدد الأزواج . ذلك فضلاً عن أن العلم قد أثبت أن المرأة التى تجتمع جنسياً مع أكثر من رجل ، ويكون لها أكثر من عشيق – تصاب بكثير من الأمراض السرية المعدية . وأمر طبيعى أن تجد عند كل امرأة من هذا القبيل مرضا زهريا معينا . وعلى سبيل المثال لابد أن تصاب الواحدة منهن بمرض التعقيبة ، وإذا لم تمتنع عن هذه الممارسات وتعالج – تنفذ الجراثيم إلى المهبل حيث تكون مستعدة لإصابة كل رجل يقبل على مجامعتها . ومن الهراء أن يقترح أحد الوقاية الطبية ، لأنه لا فائدة من الاعتماد عليها . ونحب أن نؤكد بشدة حتمية العدوى وانتشارها انتشاراً خطيراً ، حتى يكون فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
في حق القوامة

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء : ٣٤) ..

سبق لنا القول بأن القدرة العاطفية هى المحور الأساسى الذى يوجه نفس حواء وتفكيرها ، وأن المشاعر والأحاسيس العاطفية هى الحالة الطبيعية بالنسبة لها ، والذى يندر أن تهجرها ، وإذا هجرتها وجدت فى نفسها مقاومة باطنية تنبع من أعمق أعماقها . ومن السمات التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرة العاطفية عند حواء : سرعة التأثر العاطفى ، وسرعة التأثر بالإيحاء ، وسرعة الاستجابة للدوافع . وحين يترك زمام الأمور لهذه السمات السابقة تكون الغلبة والسيطرة للعاطفة ؛ وبالتالى نستطيع أن نلحظ صفات نسوية متعددة ، مثل : تقلب المزاج ، تغير الطبع ، الرغبة فى التنويع . وإذا كان تقلب المزاج من الأمور الشائعة لدى حواء ، فينبغى أن نشير إلى أن هذا الأمر ليس محصلة لطبيعتها العاطفية وحدها ، بل يرجع أيضاً إلى التغيرات المتلاحقة التى تحدث فى وظائف جسمها . وحواء تتسم - بالإضافة إلى ما سبق - بالرقة والمرونة والحساسية .

وشعورها بكونها متسمة بكل هذه السمات سالفة الذكر يولد لديها رغبة عميقة فى التماس عون الرجل وحمايته .

أما الرجل ، فالقدرة العاطفية وما يتفرع عنها من سمات أخرى - لا تمثل بالنسبة له سوى عدول مؤقت عن حالته العادية ؛ حيث إنه يتميز بالتفكير المنطقى غير المتأثر بالعاطفة ، واستخدام التفكير قبل الاستجابة ، وببطء الانفعال والتأثر ، وبالخشونة والصلابة ، وعدم الاستجابة السريعة للدوافع ، وبثبات المزاج نسبياً وبصفة عامة . وهذه السمات راسخة فى تكوينه بقدر رسوخ السمات المضادة فى تكوين المرأة .

هذه كانت بعض المعانى التى ذكرناها فى معرض حديثنا عن السمات النفسية والعقلية عند الرجل والمرأة . ونرجو من الأخ القارىء أن يستصحب هذه المعانى ويتذكر ما قلناه فى ذلك الموضع ، ثم يتساءل معنا :

مَنْ أولى بالقوامة : المرأة أم الرجل ؟ العاطفة أم الفكر ؟ لاشك أن المستصحب لكل المعانى السابقة ، يستطيع أن يجزم بأن الرجل هو الأولى بهذه المهمة . ولكن ينبغى أن نشير إلى أن « درجة القوامة » ، التى يعد الرجل أحق بها — هى فى الواقع ليست « درجة تشريف » ، ولكنها « درجة مسئولية وتكليف » .

بل إن المرأة ذاتها تلتمس وتتوق إلى قوامة الرجل ، لنفس الحيثيات التى ذكرناها أعلاه ، ولأن طبيعة الأشياء جعلت الرجل هو الذى يحمى المرأة طوال فترات التاريخ البشرى ، وهو الذى يهتم بها ، ويقوم على أمرها هى وأبنائها . فالمرأة تعتمد على الرجل فى صيانتها ، وحمايتها ، وإعاشتها ؛ نتيجة سماتها الحسية المميزة . وهى تلتمس منه هذه الحماية وتتطلبها ، وهى تدرى أو لا تدرى . وترغب فى الاعتماد عليه ؛ لأن شعورها الملهم الراق ينبئها بأن أسباب هذا الاعتماد إنما تقوم على أسس طبيعية فطرية .

ولا أريد أن أستطرد فى هذه المسألة أكثر من ذلك ، فقد عرضت لها بشىء من التفصيل فى أثناء الحديث عن السمات النفسية والعقلية عند الرجل والمرأة ، ويا حبذا لو تكرم الأخ القارىء بالرجوع إليها .

* * *

ليس الذكر كالأنثى
فى كيفية معالجة النشوز

فرق الإسلام بين الطرق والأساليب التى يجب اتخاذها فى معالجة نشوز المرأة أو الرجل . فجعل الأساليب التى يجب على الرجل اتخاذها فى حالة نشوز الزوجة غير تلك التى يجب على الزوجة اتخاذها فى حالة نشوز الزوج .

وحق الزوج فى اتباع الأساليب التى قررها الإسلام لمعالجة النشوز ينبثق عن حقه فى القوامة . وهذه الأساليب ليست أبداً للقسر والإرغام ، ولا للإهانة والإذلال . وإنما هى فقط لمواجهة بوادر التصدع والانشقاق ، وللقضاء على أى انحراف من الممكن أن يفضى بالأسرة إلى الانهيار والدمار .

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ﴾ (النساء : ٣٤) ..

أول خطوة يجب اتخاذها هى : التنبيه ولفت النظر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ؛ فليس الأمر استبداداً وطغياناً ، إنما هو أخذ ورد ومناقشة هادئة تبغى ردّ الأمور إلى نصابها .

وكم هنّ كثيرات تلك الزوجات اللاتى يستجبن لمثل هذا الأسلوب المهذب الرقيق .. ولكن – فى نفس الوقت والحين – هناك زوجات لا يجدى معهنّ مثل هذا الأسلوب ، فيبقين على ما هنّ عليه ، بل قد يتمادين فى الانحراف كلما زيد لهن فى النصح والتوجيه !

ومثل هذه يتبع معها الأسلوب الآخر ..

﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ ..

الهجر فى المضجع .. أن يدير الزوج ظهره لزوجته فى الفراش ولا يلتفت إليها . وليس معناه ترك حجرة النوم ، أو منزل الزوجية ؛ لأن هذا هجر للمضجع وليس هجراً فى المضجع .. إن الهجر فى المضجع – أكرر – هو أن ينام الزوج

مع زوجته فى نفس الفراش ، ولكن يوليها ظهره ولا يلتفت إليها .. ولهذا الإجراء حكمة عالية ذكرتُها فى كتاب « المشاكل الزوجية وحلولها » . وإذا لم يُجدِ هذا الإجراء كما لم يجد الإجراء الأول – لابد أن تكون مثل هذه الزوجة من نوع آخر .. نوع لا تجدى معه مثل هذه الإجراءات ، وقد يجدى معه إجراء آخر !

﴿ واضربوهن ﴾ ..

ومثل هذا الإجراء لا يتخذ إلا مع هذا النوع من الزوجات اللاتى لا يستجبن إلا له ولا يجدى معهن أى إجراء آخر ! وهذا هو بعينه ما توصل إليه علم النفس الحديث بشأن بعض أنواع المرض النفسى التى تنتاب نوعاً معيناً من النساء .. فبعد كثير من الدراسات النفسية التجريبية والتحليلية – قرر علم النفس أن هناك صنفين من النساء يناسبهما هذا الأسلوب تماماً ؛ لأنه يعالج عند الصنف الأول انحرافاً نفسياً معيناً ، ويسبب نوعاً من اللذة والرضا للصنف الثانى ..

وهاكم تصنيف علم النفس لهذين الصنفين من النساء :

- الصنف الأول : هو الذى يسلك « المسلك التحكمى » .. وهذا الصنف من النساء يجدن لذة ومتعة فى القسوة والتسلط والسيطرة على الزوج . ومثل هذا الصنف لابد من كسر شوكته ؛ حتى يرتد إلى حالته السوية ، وهذا لا يكون إلا بالضرب .
- الصنف الثانى : هو الذى يسلك « المسلك الخضوعى » .. وهذا الصنف من النساء يجدن لذة فى الضرب ، تشبه اللذة الجنسية (ماسوشيزم) Masochism .

على أنه ينبغى التنبيه على أن الرسول ﷺ قد وضح لنا كيف يُتَّبَعُ مثل هذا الإجراء .. الضرب ..

فلم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر زوجة من زوجاته . وقد قيد ﷺ هذا الضرب بشروط : تمنع أن يكون للقهر والإجبار ، وتمنع أن يكون للإهانة والإذلال ، وتمنع أن يكون فيه أى إيذاء أو انتقام ..

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك آداباً معينة تُتّبَعُ فى تنفيذ مراحل المعالجة التدريجية لنشوز الزوجة .. وهى : أن يكون تنفيذها أمراً محصوراً بين الزوجين ، فينبغى أن لا تمارس أمام أحد سواء كان من الأقارب أم من الغرباء ، وأن لا تكون أمام الأطفال ؛ لأن ذلك سيكون له أثر غير محمود فى تكوينهم النفسى والشعورى ، وفى نظرتهم إلى أمهم وأبيهم .. فضلاً عن عدم إعلام أى أحد بها ؛ لأن ذلك مما يسبب إحراجاً للمرأة قد يدفعها دفعاً إلى بقائها على ما هى عليه من النشوز والعناد ، بل قد يدفعها إلى الازدياد والتمادى .

وهكذا نرى الخطوات والإجراءات التدريجية التى يجب اتخاذها فى حالة خوف نشوز الزوجة .. الوعظ .. الهجر فى المضجع .. الضرب ..

وهذه الإجراءات مشروعة على الترتيب والتدريج .. وعند تحقق استجابة الزوجة لأى إجراء منها ، يجب على الزوج أن لايتجاوزه إلى ماوراءه ، فإن تجاوزه فقد تعدى وظلم .. وهنا يجب أن يُوقَف عند حده :

﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، إن الله كان علياً كبيراً ﴾ ..[١٣]

* * *

رأينا فيما سبق كيف وضح الإسلام الإجراءات الواجب اتخاذها فى حالة نشوز الزوجة .. والآن نرى توضيحه لموقف الزوجة حين تخشى نشوز الزوج او إعراضه عنها لسبب أو لآخر ..

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ (النساء : ١٢٨) ..

فى حالة خوف الزوجة من زوجها نشوزاً : أى تجافياً عنها وترفعاً عن مصاحبتها ، كراهة لها ومنعاً لحقوقها .. او إعراضاً : بأن يقل مجالستها ومحادثتها

---

(١٣) تناولتُ موضوع النشوز بتفصيل وتوسع فى كتاب «المشاكل الزوجية وحلولها فى ضوء القرآن والسنة والمعارف الحديثة» .

ولا يأنس بها .. فى هذه الحالة يجمل بالزوجين أن يجلسا مجلساً عائلياً هادئاً ، بعيداً عن الانفعالات النفسية والتوترات الشعورية ، ويقوما معاً بتقصى الأسباب التى قد تكون مؤدية إلى نشوز الزوج أو إعراضه ، ويعملا بكامل جهدهما على إزالتها والقضاء عليها . ولا مانع إطلاقاً فى هذا المقام من أن تقوم الزوجة بعملية استرضاء لزوجها بوسائل متعددة : مادية أو حيوية . والأمر فى هذا متروك للزوجة وتقديرها وما تراه متمشياً مع مصلحتها ، لا إلزام عليها ولا تكليف[١٤].

* * *

(١٤) عن كتاب «المشاكل الزوجية وحلولها» للمؤلف .

ليس الذكر كالأنثى
فى كيفية استخدام حق الانفصال

سبق لنا أن ذكرنا أن الإسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى حق فك رباط الزوجية ، ولكنه يفرق بينهما فى كيفية استخدام هذا الحق ؛ حيث يعطى الرجل حق « الطلاق » ، ويعطى المرأة حق « الخلع » .

فلماذا ؟ وعلامَ ؟ وكيف ؟

أولاً : الطلاق :

العلاقة بين الزوجين تقوم على ثلاثة مقومات أساسية : السكن .. والمودة .. والرحمة .

ولكن ما الملجأ عندما تذهب هذه المعانى من النفوس بالكلية ، وتحل محلها معانٍ مضادة تماماً ؟

ما الملجأ عندما تذهب لمحات البشاشة وتحل محلها لمحات العبوس ؟

ما الملجأ عندما يصبح الشقاق مذاقاً فى كل حين مع أذواق المأكل والمشرب والملبس ؟

ما الملجأ الذى فيه الخلاص عندما تصبح الحياة الزوجية مفعمة بالكراهية والنفور ، والتباين فى الطبائع و الأمزجة ؟

ما الملجأ عندما لا تجدى كل الإجراءات الإصلاحية فى حياة زوجين من الأزواج ؟

إنه الطلاق ..

إن الإسلام عندما يفتح الباب للانفصال .. لا يفتحه كما تفتحه روسيا والولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية ، بحيث يكون البناء الأسرى هشاً غير

متماسك ، فيتصدع وينهار عند أى خلاف أو خصومة . كما أنه لا يقفل الباب أمام الزوجين كما تفعل المسيحية والهندوسية ، بحيث لا يستطيع الزوجان الانفصال مهما كانت دواعيه قوية ضرورية ، فيعيش الزوجان معاً حياة كُتِبَ عليها الشقاء ، ولا فرار !

إن الإسلام لا يفتح الباب للانفصال على الإطلاق وَلا يقفله على الإطلاق .. إنما هو فقط يراعى الظروف ويتماشى مع المصالح والمقتضيات فقد يكون الطلاق واجباً، وقد يكون محرماً ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مندوباً إليه . وهذا هو تفصيل علماء الحنابلة وهو أرجح الآراء ..

فأما الطلاق الواجب : فهو طلاق الحكَمين فى الشقاق بين الزوجين ، إذا رأيا أن الطلاق هو الوسيلة لقطع الشقاق .

وكذلك طلاق المُولى بعد التربص مدة أربعة أشهر لقول الله تعالى : **﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن/ فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾**[١٥].

وأما الطلاق المحرم : فهو الطلاق من غير حاجة إليه ، وإنما كان حراماً ؛ لأنه ضرر بنفس الزوج ، وضرر بزوجته ، وإعدام للمصلحة الحاصلة لهما من غير حاجة إليه . فكان حراماً ، مثل إتلاف المال ، ولقول الرسول ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »[١٦].

وفى رواية أخرى أن هذا النوع من الطلاق مكروه لقول النبى ﷺ : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[١٧] وفى لفظ : « ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق »[١٨]. وإنما يكون مبغوضاً من غير حاجة إليه – وقد سماه النبى ﷺ حلالاً – ولأنه مزيل للنكاح المشتمل على المصالح المندوب إليها ، فيكون مكروهاً .

---

(١٥) البقرة : ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(١٦) رواه أحمد وابن ماجه . حديث حسن .

(١٧) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم فى مستدركه . حديث صحيح .

(١٨) لأبى داود عن محارب بن دثار مرسلاً ، والحاكم فى مستدركه عن ابن عمر . حديث حسن .

وأما الطلاق المباح : فإنما يكون عند الحاجة إليه ، لسوء خلق المرأة ، وسوء عشرتها ، والتضرر بها ، من غير حصول الغرض منها .

وأما المندوب إليه : فهو الطلاق الذى يكون عند تفريط المرأة فى حقوق الله الواجبة عليها ، مثل الصلاة ونحوها ، ولا يمكنه إجبارها عليها – أو تكون غير عفيفة .

قال الإمام أحمد رضى الله عنه : لا ينبغى له إمساكها ، وذلك لأن فيه نقصاً لدينه ، ولا يأمن إفسادها لفراشه ، وإلحاقها به ولداً ليس هو منه ، ولا بأس بالتضييق عليها فى هذه الحال ، لتفتدى منه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾[19]

قال ابن قدامه : ويحتمل أن الطلاق فى هذين الموضعين واجب .

قال : ومن المندوب إليه ، الطلاق فى حال الشقاق . وفى الحال التى تخرج المرأة إلى المخالعة لتزيل عنها الضرر[20]

هذا هو حكم الطلاق على التفصيل المستند إلى القرآن والسنة .. وهو رأى وجيه يراعى الظروف ويتماشى مع مصلحة الزوجين إلى أبعد الحدود .. فلا يفتح باب الطلاق على مصراعيه ولا يسده سداً محكماً .

ولقد وضع الإسلام شروطاً للطلاق بحيث لو نفذت على وجهها ما كان هناك طلاق إلا حيث الحاجة والضرورة :

الشرط الأول : هو أن يطلق الزوج زوجته المدخول بها طلقة واحدة رجعية . وللزوج أن يرد زوجته المطلقة إليه طوال فترة العدة ، وهى ثلاث حيضات (أى حوالى ثلاثة أشهر فى العادة) . وذلك حتى تكون هناك فرصة كافية للتفكير والتدبر ، وحتى تهدأ النفوس وتزول الانفعالات ، عسى أن تتبدل القلوب وتلوح فى الأفق سحابة الإصلاح وتعود حياة الزوجية مرة أخرى . فإذا مرت هذه الفترة .. فترة العدة .. دون أن يراجعها ، فليفارقها بمعروف :

---

(١٩) النساء : ١٩ .

(٢٠) راجع المغنى لابن قدامه ..

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء .. وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾[٢٠].

﴿ ... إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾[٢١].

الشرط الثانى : أن لا يطلق الزوج زوجته المدخول بها فى فترة الحيض ، ولا يطلقها فى طهر قد جامعها فيه ، إنما يطلقها فى طهر لم يقع فيه جماع ؛ لقول الله تعالى : **﴿ ... إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ... ﴾**[٢٢].

والمعنى إذا أردتم تطليق النساء وعزمتم عليه ، فطلقوهن مستقبلات العدة ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقت المرأة فى الطهر لتكون أول حيضة تستقبلها قرءاً محسوباً من الأقراء الثلاثة . والمراد أن يطلقهن فى طهر لم يقع فيه جماع ، ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن . عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ ، فتغيظ منه رسول الله ﷺ ، ثم قال : « مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » . رواه البخارى ومسلم .

هذا هو الشرط الثانى حتى يكون الطلاق صحيحاً ، وهو شرط له حكمة عالية ، لسببين :

١ - يحدث للمرأة أثناء فترة الحيض كثير من التغيرات الجسمية والنفسية ، مما يكون له أبلغ الأثر فى تصرفاتها وسلوكها ، وقد يصدر منها بعض الأفعال وردود الأفعال التى لا ترضى عنها حين تتطهر من الحيض .

---

(٢٠) البقرة : ٢٢٨ .
(٢١) الطلاق : ١ - ٢ .
(٢٢) الطلاق : ١ .

ولقد نظر المنهج الإسلامى الحكيم بعين الاعتبار لهذه التغيرات التى تعترى المرأة أثناء فترة الحيض ، فحظر على الرجل طلاق زوجته فى أثنائها ؛ لأنه قد يكون ذلك نتيجة انفعال وقتى تحت تأثير هذه الفترة المعنية .

٢ - فى أثناء فترة الحيض لا يتم اللقاء الجنسى بين الزوجين ، مما قد يكون له تأثير سلبى فى نظرة الزوج إلى زوجته . ومن المنتظر بعد انتهاء هذه الفترة أن يتم اللقاء فيعود الود والانسجام . أما إذا جاء طهر ولم يجامعها فيه ، ورغب فى الانفصال ، فهذا دليل على أن هذه الرغبة ليست تحت تأثير فترة الحيض .

فلابد من توفر هذين الشرطين حتى يكون الطلاق متفقاً مع المنهج الإسلامى ، والطلاق المخالف لهذين الشرطين أو أحدهما طلاق غير مشروع ، يسمى فى الفقه الإسلامى بالطلاق البدعى .

وهذا الطلاق البدعى المخالف لقواعد المنهج الإسلامى ، قد اتفق الفقهاء على أنه حرام ، وأن فاعله يكون آثماً .

ولكن هل يقع هذا النوع من الطلاق؟

قال جمهور الفقهاء : وفيهم الأئمة الأربعة ، بوقوعه .

ولكن ذهب جمع من العلماء المحققين إلى أن هذا الطلاق لا يقع ، ومنهم : فقهاء الشيعة ، وابن علية من السلف ، وعبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، وطاوس ، وخلاس بن عمر ، وأبو قلابة من التابعين ، وهو اختيار الإمام ابن عقيل من أئمة الحنابلة وأئمة آل البيت ، والظاهرية ، وأحد الوجهين فى مذهب الإمام أحمد ، وابن تيمية ، وابن حزم ، وابن القيم .

واحتجوا رحمهم الله على مذهبهم بالآثار وأقوال الصحابة والتابعين . وبناء على هذا الرأى الأخير يكون أى طلاق مخالف لقواعد السنة غير واقع ، فلا يقع الطلاق على المدخول بها فى الحالات الآتية :

١ - لا يقع الطلاق فى أثناء الحيض .
٢ - لا يقع الطلاق فى أثناء النفاس .
٣ - لا يقع الطلاق فى أثناء طهر قد دخل بها فيه .
٤ - لا يقع الطلاق المقترن بالعدد إلا طلقة واحدة . فإذا قال الزوج لزوجته : أنت طالق بالثلاث ، لايقع إلا طلقة واحدة .

وهكذا نرى أن المنهج الإسلامى لم يدع مسلكاً من المسالك يمكن أن يفيد فى استمرار الحياة الزوجية إلا وقد سلكه ؛ وذلك لأن مؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام بقدر أهميتها ودورها الحيوى فى بناء المجتمع الإنسانى .

وحين يقع الطلاق باعتباره الملجأ الأخير للقضاء على حياة كئيبة منغصة - فإن الإسلام تكفل بوضع التشريعات اللازمة لتحقيق مصالح الزوجة المطلقة وحقوقها ، ومن هذه الحقوق :

للزوجة المطلقة أن تبقى فى دار مطلقها ، مع الإنفاق عليها ، طوال فترة العدة ، لا يحق له أن يخرجها ، وليس لها أن تخرج إلا إذا اقترفت فاحشة مبينة يتعذر معها أن تظل فى منزل زوجها ، كالبذاءة على الزوج وأهله ، فيحل حينئذ إخراجها لبذاءتها وسوء خلقها .

وبقاء الزوجة المطلقة فى دار زوجها فى أثناء العدة يعطى متسعاً خصباً للتفكير والتروى ، فقد تتبدل القلوب ، وتلوح فى الأفق سحابة الإصلاح ، وتعود الحياة الزوجية مرة أخرى .

فإذا أوشكت مدة العدة على الانتهاء . فللزوج أن يرجع زوجته إليه ، وإلا فليفارقها بالمعروف ويوفيها جميع حقوقها .

وإن كانت المطلقة حاملاً ، فيجب عليه أن ينفق عليها إلى أن تضع حملها ، فعند ذلك تسقط النفقة لخروجها من العدة ، ولا فرق فى هذا بين الرجعية والبائن . أما إذا كانت المطلقة غير حامل ، فإن كان طلاقها رجعياً فقد وجب لها السكن والنفقة بإجماع العلماء ، وإن كان طلاقها بائناً وجب لها

السكن والنفقة عند الإمام أبى حنيفة ، ويجب لها السكن فقط عند الإمامين : مالك والشافعى .

فإذا ولدت ووافقت على إرضاع ولدها ، فيجب على الرجل الإنفاق عليها على حسب وسعه وطاقته :

﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ... ﴾[٢٣] .

﴿ أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهنّ لتضيقوا عليهن وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهنّ فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عُسْرٍ يسراً ﴾[٢٤] .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن . حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ... ﴾[٢٥]

ويجب على الزوج أن يعطى زوجته المطلقة المتعة ، وهى كل ما يعطيه لها تطييباً لخاطرها وتخفيفاً من وقع الطلاق عليها ، سواء كان مالاً أو كسوةً أو خلافه :

﴿ .. فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾[٢٦]

---

(٢٣) الطلاق : ١ - ٢ .
(٢٤) الطلاق : ٦ - ٧ .
(٢٥) البقرة : ٢٣٣ .
(٢٦) الأحزاب : ٤٩ .

﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[٢٧]

﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾[٢٨]

وللزوجة أن تستوفى صداقها كاملاً ، لا يحل للزوج شيء منه طالما كانت النفرة من جانبه :

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾[٢٩].

وإذا وقع الطلاق قبل الدخول ، ولم يكن قد حُدِّدَ المهر ، فقد وجبت لها المتعة ، وهى هنا قائمة مقام نصف مهر مثيلاتها على حسب حال الزوج :

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾[٣٠]

وأما إذا كان الطلاق قبل الدخول وقد حُدِّدَ المهر ، فللمطلقة نصفه ، إلا إذا تنازلت ، أو أراد الزوج أن يعطيها المهر كاملاً :

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[٣١]

---

(٢٧) البقرة : ٢٤١ .

(٢٨) البقرة : ٢٣٦ .

(٢٩) النساء : ٢٠ – ٢١ .

(٣٠) البقرة : ٢٣٦ .

(٣١) البقرة : ٢٣٧ .

ولا يكاد يأتى تشريع الطلاق فى آية من الآيات إلا وتأتى معه الأوامر بسلوك سبيل المعروف والإحسان ، والتوصية بعدم نسيان ما كان بين الزوجين من مشاعر طيبة وإفضاءات جميلة ، فمثلاً :

﴿ ... فمتعوهنّ وسرحوهنّ سراحاً جميلاً ﴾(٣٢).

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو سرحوهنّ بمعروف ﴾(٣٣).

﴿ ... وقد أفضى بعضكم إلى بعض ... ﴾(٣٤).

﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ... ﴾(٣٥).

﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾(٣٦).

ثانياً : الخلع :

قد يحدث فى بعض الأحيان أن تستحكم كراهية زوجة لزوجها ، وتصبح لا تطيق الحياة معه ، وتشعر فى قرارة نفسها أن استمرارها معه قد يفضى بها إلى عدم إقامة حدود الله فى تعاملاتها وسلوكها وفى العشرة بالمعروف ؛ فمشاعر القلوب شيء لا يملك المرء قدرة التحكم فيه ، فهل يُرغم الإسلامُ قلباً من القلوب أن يحيا مشاعر لا يرضاها ؟ هل يُجبر زوجة على علاقة تنغصها وتضايقها ؟

إن المنهج الإسلامى الحكيم المُدرِك تماماً لحقيقة النفس الإنسانية وما يجرى فيها من عواطف وأحاسيس ، كما يعطى للزوج حق طلاق زوجته التى يكرهها ولا يطيق الحياة معها ، يعطى كذلك للزوجة حق الانفصال عن زوجها الذى تكرهه ولا تطيق الحياة معه :

---

(٣٢) الأحزاب : ٤٩ .

(٣٣) البقرة : ٢٣١ .

(٣٤) النساء : ٢١ .

(٣٥) البقرة : ٢٢٩ .

(٣٦) البقرة : ٢٣٧ .

﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً ، إلا أن يخافا ألّا يقيما حدود الله ، فإن خفتم إلا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾(٣٧)

فللزوجة أن تتخلص من رباط الزوجية ، وتعوض الزوج عما أنفقه عليها من تكاليف الزواج . ويُعْرَف هذا النوع من الانفصال فى الفقه الإسلامى باسم (الخُلع) . وتعريفه عند الفقهاء هو : « فراق الرجل زوجته على بدلٍ يأخذه منها » .

وفى هذا الإجراء عدلٌ وإعطاء كل ذى حق حقه ، فهى قد قطعت رباط الزوجية بلا ذنب متعمد من الزوج ، فيجب عليها فى مقابل ذلك أن تعوضه عما دفعه لها من مهر وعما أنفقه من تكاليف الزواج .

وكما يضحى الزوج بالمال ولا يسترد شيئاً مما كان قد أعطاه للزوجة حين يطلقها برغبته : **﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾**(٣٩) ..

فعليها كذلك أن تعيد إليه ما كانت أخذته منه من مهر أو بعضه إذا أرادت الطلاق برغبتها .

وتتم عملية الخُلع أو المبارأة بين الزوجين برضاهما داخل بيتهما ولا يستلزم هذا الإجراء حكماً قضائياً ، لأن ما يمكن إتمامه بين الزوجين فى بيتهما لا داعى لإعلانه وعرضه داخل قاعات المحاكم . ولكن فى حالة عدم موافقة الزوج على الخُلع أو المبارأة . فللزوجة أن تلجأ إلى القضاء الذى من دوره إعطاء الزوجة حقها فى الخُلع حتى تحفظ حدود الله ولا تتعداها .

---

(٣٧) البقرة : ٢٢٩ .

(٣٨) البقرة : ٢٢٩ .

(٣٩) النساء : ٢٠ — ٢١ .

ويلاحظ أنه لا يجوز للرجل أن يضيق على المرأة ويضاجرها حتى تفتدى منه وتختلع :

﴿ **ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾[٤٠] .

﴿ **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ...** ﴾[٤١] .

ويرى الإمام مالك والأوزاعى أن الزوج لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب عليه أن يرد ما أخذه إليها ، ويكون الطلاق رجعياً .

وقوع الخلع فى الجاهلية :

ذكر ابن دريد فى أماليه : أن عامر بن الظرب زوّج ابنته من ابن أخيه عامر ابن الحارث بن الظرب . فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها ، فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

حالات للخلع حدثت فى عهد الرسول ﷺ :

ذكر الإمام مالك فى موطئه عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن ابن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارى أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه فى الغلس فقال رسول الله ﷺ : « من هذه ؟ » قلت : أنا حبيبة بنت سهل . فقال : « ما شأنك ؟ » فقالت : لا أنا ولا ثابت بن قيس . فدعاه النبى عليه السلام . فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ : « هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر » فقالت

---

(٤٠) النساء : ١٩ .

(٤١) البقرة : ٢٢٩ .

حبيبة : يا رسول الله ، كل ما أعطانى عندى . فقال رسول الله ﷺ : « خذ منها » فأخذ منها وجلست فى أهلها .

وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » .

وروى ابن مردويه فى تفسيره وابن ماجه بإسناد جيد مستقيم عن ابن عباس : أن جميلة بنت سلول أتت النبى ﷺ ، فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس فى دين ولا خلق ولكننى أكره الكفر فى الإسلام ، لا أطيقه بغضاً . فقال النبى ﷺ : « تردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم . فأمره النبى ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد . وروى ابن جرير بإسناد عن أبى جرير أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل ؟ قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبد الله بن أبى أنها أتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لايجمع رأسى ورأسه شىء أبداً ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهاً . فقال زوجها : يا رسول الله ، إنى قد أعطيتها أفضل مالى ، حديقة لى ، فإن ردت على حديقتى . قال : ما تقولين ؟ قالت : نعم ، وإن شاء زدته . قال : ففرق بينهما .

تلك هى أشهر قضايا الخلع فى عهد رسول الله ﷺ ، والتى يتبين منها أن زوجتين لثابت بن قيس قد طلبتا الخلع واستجيب لطلبهما ، مما يدل على عظمة المنهج الإسلامى المُدرِك تماماً لحقيقة النفس الإنسانية والمحترِم لرغباتها وعواطفها الحقيقية .

حالات أخرى للخلع حدثت على عهد الخلفاء الراشدين

روى ابن جرير أن عمر أتى بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير ا لزبل ، ثم دعا بها ، فقال : كيف وجدت ؟ فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التى كنت حبستنى . فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها .

وفى رواية أخرى : أن امرأة أتت عمر بن الخطاب ، فشكت زوجها ، فأباتها فى بيت الزبل ، فلما أصبحت ، قال : كيف وجدت مكانك ؟ قالت : ما كنت عنده ليلة أقر لعينى من هذه الليلة . فقال : خذ ولو عقاصها .

فالإمام عمر رضى الله عنه حاول أن يتأكد من أن هذه الزوجة تكره زوجها ، وعندما ثبت له ذلك فرق بينهما .

كما أنه رضى الله عنه لم يحاول أن يتعرف على أسباب الكراهية ، لأنها قد تكون مما تستحى المرأة أن تذكره . أو قد تكون غير كافية لإقناع السامع ، ولكنها كافية لتنغيص حياة من يحياها ليل نهار .

وهناك حالة خلع حدثت فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قالت صاحبتها الربيع بنت معوذ بن عفراء : كان لى زوج يقل على الخير إذا حضرنى ويحرمنى إذا غاب عنى فكانت منى زلة يوماً فقلت : أختلع منك بكل شيء أملكه . قال : نعم . قالت : ففعلت . فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان ابن عفان فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه . أو قالت : مادون عقاص الرأس .

هل يجوز للزوج أن يأخذ فى الخلع أكثر مما أعطى زوجته ؟

يرى جمهور العلماء جواز أخذ الزوج فى الخلع أكثر مما أعطى زوجته . واستدلوا بقوله تعالى :

﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾[٤٢].

وقالوا : فهذا عام يتناول القليل والكثير .

ويرى الشعبى والزهرى والحسن البصرى أنه لايجوز للزوج أن يأخذ زيادة على ما أعطى زوجته ، لأنه من باب أخذ المال بدون حق ، وحجتهم أن الآية فى صدد الأخذ ما أعطى الرجال للنساء ، فلا تجوز الزيادة . والراجح أن هذا الموضوع يتم بالتراضى بين الزوجين ، وإن كانت الزيادة مكروهة .

هل يجوز الخلع فى فترة الحيض أو فى طهر قد جامعها فيه ؟

يجوز الخلع فى أى وقت ، ولا يستلزم له وقت معين . بدليل أن الله تعالى أطلق الحكم ولم يقيده بوقت دون آخر :

﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾[٤٣].

كما أن النبى ﷺ حكم بالخلع فى قضية امرأة ثابت بن قيس دون أن يسألها عن حالها . والحيض ليس وقوعه نادراً عند المرأة .

هل تصبح المرأة صاحبة التصرف فى أمرها عندما تختلع ؟

قال جمهور الفقهاء ، ومنهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب : إن المرأة تملك نفسها ويصبح أمرها بيدها عندما تختلع ، ولا يملك الزوج رجعة لها ؛ لأنها ضحت بالمال لتتخلص من الزوجية ، ولو كان يملك رجعتها لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له . وحتى لو رد عليها ما أخذ منها وقبلت ليس له أن يرتجعها فى العدة ؛ لأنها قد بانت منه بنفس الخلع . ولكن يجوز له أن يتزوجها برضاها فى عدتها ، ويعقد عليها عقداً جديداً . وهذا يجرنا لطرح السؤال التالى .

---

(٤٢) ، (٤٣) البقرة : ٢٢٩ .

ما هى عدة المختلعة ؟

عدة المختلعة حيضة واحدة ، لما رواه النسائى بإسناد رجاله ثقات أن النبى – فى قضية ثابت بن قيس – قال له : « خذ الذى لها عليك وخل سبيلها . قال : نعم . فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها » .

وهذا هو مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وإسحاق بن راهويه .

وأيده ابن تيمية ، فقال : من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ، ليطول زمن الرجعة ، ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة فى مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفى فيه حيضة كالاستبراء .

هل الخلع فسخ أم طلاق ؟

يرى الجمهور أنه طلاق بائن ، بدليل قول الرسول ﷺ فى قضية ثابت : « خذ الحديقة وطلقها تطليقة » .

ويرى جمع من المحققين أنه فسخ ؛ لأن الله تعالى ذكر فى كتابه الطلاق ، فقال : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾[٤٤].

ثم ذكر تعالى الافتداء . ثم قال : ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾[٤٥]

فلو كان الافتداء طلاقاً لكان الطلاق الذى لا تحل له فيه إلا بعد زواج ، هو الطلاق الرابع .

وتظهر فائدة هذا الخلاف فى كون الخلع يحسب طلقة أم لا ؟ فمن رأى أنه فسخ لم يحتسبه طلقة ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعها ، ثم أراد أن يتزوجها

(٤٤) البقرة : ٢٢٩ .
(٤٥) البقرة : ٢٣٠ .

فله ذلك ، وإن لم تنكح زوجاً غيره ؛ لأنه ليس له غير تطليقتين ، والخلع لغو .

ومن رأى أن الخلع طلاق ، قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث طلقات .

وتفصيل هذه المسألة (وغيرها من المذكورة قبلها) مبسوط فى كتب الفروع ، فعلى من أراد التوسع أن يرجع إليها[٤٦] .

ولا يسع المرء فى نهاية هذا الموضوع إلا أن يقول : إن المنهج الإسلامى الحكيم المُدرِك تماماً لحقيقة النفس الإنسانية وما يجرى فيها من عواطف وأحاسيس ، لا يجبر زوجة من الزوجات على علاقة تنغصها وتضايقها ، ولا يرغمها أن تحيا فى كنف مشاعر لا ترضاها ولا تستسيغها .

فما أعظم هذا المنهج وما أحكمه ![٤٧] .

* * *

---

(٤٦) انظر : نيل الأوطار ٦ : ٢٤٦ ، وبداية المجتهد ٢ : ٥٧ ، والأحوال الشخصية ٣٢٩ ، والقرطبى ٣ : ١٤٣ ، وابن العربى ١ : ١٩٥ ، وابن كثير ١ : ٢٧٦ ، والرازى ٦ : ١٠٩ ، وزاد المعاد ٤ : ٢٧ .

(٤٧) عن كتاب «المشاكل الزوجية وحلولها» للمؤلف .

كلمة أخيرة

لايسعنى فى نهاية هذا الكتاب إلا أن أقرر : أن قضية الذكورة والأنوثة لن توضع فى موضعها الصحيح إلا يوم يُنظَر إليها على أنها علاقة بين شريكين متكافئين ، يكمل كل واحد منهما الآخر تكاملاً يتكون منه مخلوق واحد منسّجم ، متآلف ، متناسق ؛ حتى ليبدو عجيباً أن يوجد أحدهما فى غيبة الآخر .

* * *

محتويات الكتاب

المقدمة

(٥ - ٧)

القسم الأول

ليس الذكر كالأنثى فى بنيان الجسم
ووجوه النشاط الفسيولوجى

(٩ - ٥٦)

القسم الثانى

ليس الذكر كالأنثى
فى السمات النفسية والعقلية

(٥٧ - ٧٦)

القسم الثالث

محصلة وتمهيد

(٧٧ - ٨١)

القسم الرابع

الأمور التى سوّى فيها الإسلام

بين الذكر والأنثى

(٨٣ - ٩٨)

القسم الخامس

الأمور التى فرق فيها الإسلام

بين الذكر والأنثى

(٩٩ - ١٣٩)

رقم الايداع ٤٩٦٥/٨٥